جامعة المنصورة
كليـة الآداب

اللّيلُ في شعرِ أبي نُوَاس (ت١٩٠هـ)

إعـــداد
الدكتور / حسين محمّد الشّديفات
مشرف تربوي - الأردن
الدكتور / إبراهيم مصطفى الدّهون
أستاذ مساعد - كليّة الآداب - الجامعة الهاشميّة - الأردن

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد السادس و الستون – يناير ٢٠٢٠

اللّيلُ في شعرِ أبي نُوَاس(ت١٩٠هـ)

د. حسين محمّد الشّديفات
مشرف تربوي، الأردن.

د. إبراهيم مصطفى الدّهون
أستاذ مساعد، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن

ملخص البحث

تهدف هذه الدّراسةُ إلى محاولة تسليط الضّوء على ظاهرة غدت جليةً عند الشّاعر أبي نواس تمثلت بصورة اللّيل، إذْ قام الباحثان باستنطاق النّصوص الشّعريّة من أجل بيان أثر رؤيته لليل في التّشكلات البنائيّة للأنساق الشّعريّة كونها تؤدي دوراً فعالاً وتشابكياً في مواقفه الذاتيّة المختلفة، التي ترجمها الشّاعر أثناء تعامله مع هذه اللّحظة الزّمنية دون غيرها.

ولعلَّ الشّعور باللّيل والاستعداد النّفسي له نحى بالدّراسة إلى منحيين اثنين، صنعا ركائز البحث،هما:

***المبحث الأول:** النّزعةُ التفاؤلية لصورة اللّيل في شعر أبي نواس.*

***المبحث الثاني:** النّزعة التّشاؤمية لصورة الليل في شعر أبي نواس .*

***الكلمات المفتاحية:** اللّيل، أبو نواس، الشّعر، العبّاسي*

Abctract :

This study aims to try to shed light on a phenomenon that has become evident among the poet Abu Nawwas, represented in the form of the night. Deal with this moment of time and not others.

Perhaps the feeling of the night and the psychological readiness for it brushed the study into two aspects, they made the pillars of the research, they are:

The first topic: the optimistic trend of the image of the night In Poetry Abu Nawwas.

The second topic: the pessimistic tendency of the image of the night In Poetry Abu Nawwas.

Key words: night, Abu Nawwas, poetry, Abbasi.

توطئة:

نظرَ الشّعراءُ إلى الطبيعة من حولهم، وراحوا يتأملونها تأملاً دقيقا، قادهم هَذا التّأمل إلى النّهل من ينابيعها الطبيعيّة الثرّة، ولا سيما الاندماج بظواهرها سواء كانتْ زمانية أم مكانية، ولما كان الشّاعر يملك إحساساً مرهفاً وخيالاً ممتداً كان مستعداً لتلقي أي إغواء أو تزين يشبع ملكاته الإبداعية والفنية.

من هنا، وعى الشّاعرُ الزّمانَ، وتحولاته والتّبدلات الحاصلة عليه، فاتّخذ منه وعاء عقلياً يسكب فيه مشاعره، وعصارة فكره؛ ليصوغ منه فناً بديعاً يرتبطُ بالحياة ارتباطاً وثيقاً. بدليل أنَّ "القصيدة الشّعرية حصيلةُ وضع إنساني، يتداخل فيه ما هو ذاتي وما هو موضوعي، ما هو خاص وما هو عام، ومن الضروري تحليل موضوعات القصيدة في ضوءِ ذلك الوضع"[١].

وإذا ما وقفنا على أشعارِ العباسيين[٢] لأدركنا أن تعاملَهم مع الزّمانِ عامةً، واللّيل

---

(١) خليل، أحمد، في النّقد الجمالي، ط١، دار الفكر، دمشق،١٩٩٦م، ص٩٥.

(٢) انظر الدّراسات الآتية: شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٥م. الطبيعة في شعر ابن المعتز، علي المصطفى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد،١٩٩١م. ظاهرة الزّمن في الشّعر العربي القديم، نضال الأميوني دكاش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٩م. اللّيل في الشّعر الجاهلي، نوال إبراهيم، دار اليازوري، عمان،٢٠٠٩م. أثر السياق الزّمني والمكاني في تكوين الصورة البيانية: شعر خالد الكاتب أنموذجاً، علي كاظم، مجلّة اللّغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، كلية الآداب،ع١٩، ٢٠١٤م. قضية الزّمن في الشّعر العربي: الشّباب والمشيب، فاطمة محجوب، دار المعارف، القاهرة، د.ت. اللّيل في الشّعر

خاصةً جاء تعاملاً يتجاوز المستوى السَّطحي إلى مستوى عميقٍ، فيه التَّجديد واستخلاص لبابه خدمة لفلسفتهم ومواقفهم إزاء الحياة، فالزَّمن لديهم حركةٌ جامحةٌ، وشُرافةٌ يطلون منها على الحياة.

ولا غرابة إذن، أن ينفرد أبو نواس بَاللّيل سبيلاً إلى النَّاحية الفنّية والجمالية، ليتخذَ منه رمزاً إنسانيا، يحمل نَظرة أكثر عمقاً وأبعد مرمى من نظرة أترابه من الشّعراء. فشعره استجابةٌ لطبعه الذّكي، باعتباره" من أشهر شخصيات ذلك العصر لما أحاطَ به من أطوار وأخبار، وقصص ضرب بعضها في آفاق الخيال بحيث جعلت من صاحبها شخصيةً أسطورية"[٣].

بهذا، نرى أنَّ شعر أبي نواس يرتكز على الحضور المكثّف لليل، إذْ يشكل ظاهرة بارزة وبؤرة زمانية، تسهم في الكشف عن خفايا النَّفس، إذْ تحول اللّيل" في خيال الشّاعر العربي قديماً من كونه ظاهرة طبيعية إلى كونه زماناً لتجارب حياتية تجسدت فيها رؤى الشّعراء ومواقفهم ومشاعرهم"[٤].

فها هو أبو نواس يتّخذُ من اللّيل متنفساً للانطلاق إلى عالمه الخاص، عالم العربدة والمجون، لذلك يحتلُّ مساحةً واسعةً في شعره، فديوانه يعمر بذكره، ولم يقف عند هذا الحدّ، بل راحَ يتّطلعُ إلى امتلاكه، لإيمانه بما فيه من إشراقة وارتقاء لروحانياته، ومن ذلك قوله:[٥]

والهوا نهاراً ولَيلاً
إلى نداء المنادي
ونَفّروا اللّيل عنكم
بلَدْة و سهاد

ويقول أيضاً:[٦]

كم لَيلَةٍ قد بتُّ أَلهو بها،
لَو دامَ ذاكَ اللّهوُ للّاهي

لا يجد أبو نواس مندوحةً من الإفصاح عن وجدانات وعواطف التّلهف إلى التّقصف حينما تتلألأ صورة اللّيل في ذهنه، فلا يستطيع عندئذ الانفلات من قبضة أغلاله، حتى تكاد نفسه تفيض شوقاً للتّمرغ بأطماره، وهكذا، يتمحور اللّيل في شعره بجانبين رئيسين، هما:

أولا: النّزعة التّفاؤلية لليل، وتتجلّى في الموضوعين الآتيين:

أ- اللّهو والسمر والمتعة.

ج- الأمان والاطمئنان والصفاء.

ثانيا: النّزعة التّشاؤمية لليل، وتتبدى في المظهرين الآتيين:

أ- السوداوية القاتمة.

ب-الشّكوى والأنين.

العربي: من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، كوثر علي، أطروحة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان،٢٠١٤م.

(٣) الشّكعة، مصطفى، الشّعر والشّعراء في العصر العبّاسي، دار العلم، بيروت،١٩٧٣م، ص١٧١.

(٤) الرّباعي، عبد القادر، جماليات المعنى الشّعري: التّشكيل والتأويل، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٩٨م، ص٢٠٢.

(٥) أبو نواس، الحسن بن هانئ، الديوان، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، ط١، منشورات دار الكتاب اللّبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م،٣٠٩/١.

(٦)ديوان أبي نواس،٩٨٩/٢.

الأول: النّزعة التّفاؤلية لليل:

عدَّ أبو نواس اللّيل مصدراً من مصادرِ الاستبشارِ والسَّعادة في معظمِ أشعارِه، فكان أداته للظفرِ بالأماني وإدراك المنى، إذْ يبدو حريصاً على ربط النّظرةِ التّفاؤلية بمكونِ اللّيل ووقوعها وقوعاً باهراً في نسيجِ خطابه الشّعري لعدّة أسباب، كان أبرزها:

أ- اللّهو والسَّمر والمتعة:

تتمركز صورة اللّيل في غالبية أشعارِ أبي نواس حول اللّهو والسمر والمتعة، فاللّيل يجسد وعاء حاضناً لمغامراته وتحركاته مساء، وللهو عنده أنواع، يرتبطُ كل منها بشكل لافت بالخمرِ، ويتّصل بها اتّصالاً وثيقاً لا يكاد ينفصل عنها.

والمطلع على شعرِه يلحظ أنّه يكثر من الجمعِ بين اللّيل والخمرِ، فهما مقترنان اقتراناً وثيقاً، فكلٌّ منهما يقترنُ بالآخرِ بطريقة أو بأخرى. والحديثُ عن اللّهو في شربِ الخمرِ ليلاً يطفح شعره به؛ ليعبّر به عن مدلولات الانتصارِ وامتلاك القوة، فيتراءى حضور اللّيلَ أغصاناً مثمرة، وعاملاً محفّزاً على الشّرب، إذْ يقول:[٧]

هذا قِناعُ اللّيلِ محسور،
فاشْرب فقد لاحَ التّباشير
سلافةً لَم تعتصرها يدٌ،
ولَم تدنّسْها الأعاصير

يفطنُ أبو نواس إلى أهميّة اللّيل، حاثّاً النشاوى إلى اغتنامِ ما تبقى منه قبلَ زوالهِ بالعبِ من الخمرةِ؛ لأنَّ تباشير الصَّباح قد لاحت في الأفقِ، فما كان منه إلا أن بقي ساهراً لاهياً إلى فترةِ ظهور علامات زواله، إذْ يدرك الشّاعر هذه الحقيقةَ لذلك أضحى يقضيه في شربِ الخمر المعتقة التي لم تعصر باليد، ولم تفسدها الرياح، وواضح أنَّ أبا نواس لا " يمل من وصف مجالس الشّرب، ونعت الخمر، وتعديد صنوفها، وتفصيل صنعها، والتّغني بألوانها"[٨]، ولعلّه " يجد في ظلمة اللّيل عذراً عن لهوه، ولكنّه لن يجد في ضياء الصَّباحِ من يعذر ضلاله ولهوه"[٩].

وتبرز رغبةُ أبي نواس في استثمارِ اللّيل وانتهابه انتهاباً حتّى نهايته في تناول كؤوسِ الخمرِ، وتطوافها على معاقريها، قال مخاطباً ساقيه:[١٠]

هات من الرَّاحِ؛ فاسقني الرَّاحا،
أَما تَرى الدّيك كيف قد صاحا
وأَدبر اللّيل في معسكَرِه،
منصرفاً، والصَّباح قد لاحا
فاستعمل الكأس، واسقني بكراً،
إنّي إليها أصبحت مرتاحا

أنطلق أبو نواس يمتطي صهوة اللّهو بشربِ الخمرِ حتّى نهايةِ اللّيل، فالشّاعر لا يحبذ أن يفارق ليله إلا وقد تحققت ملذاته ومسراته

---

[٧] ديوان أبي نواس، ٣٨٩/٢.لاح: ظهر وبان من بعيد.

[٨] رضوان، محمد، ليالي أبي نواس شاعر العشق والمجون، ط١، مركز الرّاية للنشرِ والإعلامِ، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٣٢.

[٩] العمر، فاطمة، اللّيل في الشّعرِ العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلب، سورية،١٩٩٨م، ص٣٥.

[١٠] ديوان أبي نواس،٢٥٩/١.

بتناول أقداح الخمر التي تحقق له الانفتاح والانشراح، فراح يتّخذ من اللّيل ملاذاً تستعر فيه نار الأُنس من الدّاخل، فهو السَّليل المباشر لفرحه، عندئذ يكون للخمر دور مركزي ومهم فيها، فأبو نواس يثور على ديكه بوصفه نذيراً لرحيل اللّيل، ويجد فيه شيئاً من الكآبة والشؤم لارتباطه بالنّهار المبدّد للراحة والسَّعادة، "وتتمثل هذه الرؤية في أنَّ اللّيل يمتع المرء بسهره وسمره، وبذلك يتلذذ الإنسان باللّيل دون النهار الذي يراه الشّاعر بأنّه قاطع للذات اللّيل"(١١).

ولا غرو أن يندفع الشّاعر للانتباه إلى أُفول اللّيل حيث أخذ بالانزياح شيئاً فشيئاً، وعلامات الصباح بدأت تلوح تدريجياً، وأولها صياح الديك بإعلانه أنَّ موعد اللّيل قد قارب على الزّوال؛ لذا عليه أن يقتنص متعته بالفرح والامتلاء من الخمرة، وهذا قمين بأن يختار من "أسمائها الرَّاح، ليوحي بالراحة النّفسية التي ينشدها في اللّيل"(١٢).

وتتسع دائرة التّحولات التي طرأت على اللّيل ليبقى الشّاعر مستيقظاً غارقاً في لهوه طوال سهره، مسكوناً بحالة التّرقب والتّرصد لأفق الصَّباح الذي يشير إلى القطيعة والتّشاؤم، لكونه هدّاماً للاجتماع والاتّصال، ودالاً على الخراب والدَّمار، فقد قال: (١٣)

ونديمٍ لم يزل ساقينا،
وعلى الصُّبح من اللّيل إزار
فاحتسى حتّى تولّى ليله،
فكساه الصُّبح ثوباً ما يعار

ولنلاحظ كيف تجلّى الاقتراب من المتعة حينما نظر أبو نواس إلى اللّيل في داخله ليجد رغبةً ثاويةً في إحياء اللّذة واستلابها من خمرته، هذه الصَّهباء التي صنعت له أملاً عارماً بالهروب من شحنات نفسيّة تتلجلج في دواخله كانت قد آلت به إلى الحانات والأديرة طلباً بالهدأة النّفسية وصفاء الرُّؤيا. فمع التقاء القهوة باللّيل، والمتعة بلحظة زمنية ينبع الإحساس بالفرج والانطلاق، وليس عجيباً – حينئذ– أن يتّخذ أبو نواس من نديمه ساقياً يستحثّه على تناول المعتقة حتى ينقضي ليله كلّه، لإدراكه بفاعلية الصّبح السوداوية على السكارى، إذ يبرز بوصفه فعلاً قادراً على تبديد المسرة وتوليد الاكتئاب، وأمراً مرعباً للإنسان، ومن هنا "يبدو أنَّ متعة الشّاعر كانت تبلغ ذروتها حين تبدو بشائر الفجر، أو أنّه نوع من التّباهي بأنه ظلَّ طوال اللّيل يعبُّ كؤوس الخمر"(١٤).

ويشكّل اللّيل عنصراً أساسيّاً في لبنات النّص الشّعري وتشكلاته الفنيّة لخمريات أبي نواس، وإنَّ النّظر إلى الخمر بأنّه دواء يشفي جراح القلب ليلاً، ويظهر علاقة أبي نواس الجميلة

(١١) الشّريف، سري، تصوير اللّيل في شعر البهاء زهير، المجلّة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، مج٢١، ع١، ٢٠٠٦م، ص٦٠.

(١٢) الشتيوي، صالح علي سليم، اللّيل في شعر عبد الله بن المعتز، المجلّة الأردنية في اللّغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، مج٢،ع٤، تشرين الأول، رمضان،٢٠٠٦م، ص٢٥٦.

(١٣) ديوان أبي نواس، ٤٢٦/١.

(١٤) العمر، فاطمة، اللّيل في الشّعر العبّاسي، ص ٥٧.

مع اللّيل، والمتمركزة في رسمِ دائرة الطرب والفرح، إذْ يقول:(١٥)

مضى لَيل، وأَخلَفت النُّجوم
ونحنُ لَدى مصارِعِنا جثُوم
فَداوِ كُلُوم قَلْبِ أَخيك لَيلاً،
فَإنَّ فُؤادَه أَبداً كَلِيم
بِصافِيةٍ، إذَا قُرِعتْ بِماء،
جرى عن متْنِها دُرٌّ يحوم

يستحضرُ أبو نواس مشهداً ليلياً صرفاً تنبعثُ منه رائحةُ الحرية المطلقة، وما تختلجُ به ذاته من عودةٍ إلى لحظة زمنية مسكونة بالنّفس والحياة، ليس هذا فحسب، بل لا يملكُ إلا أن يستسلمَ أمام هذه القوة الدّالة على الشّفاء والتّداوي من جراحات الحاضر. فالشّاعر يضفي على ليله مهابة وروحاً شمولية، تنتج بعداً إنسانياً يمكننا أن نلمسه في صورة اللّيل عندما أصبح مهدئاً نفسياً ومادة علاجية لتطبيب روحه من الاهتياج المغلّف بالتّشظي والكآبة. وفي إطار حركة اللّيل تمسي الخمرة دواء ناجعاً،" يمنح الذّات الشّاعرة حالة شعورية تمتلئ بالبهجة والتّفاؤل، وتخرج الشّاعر من وحدته وآلامه، وتجعله قادراً على تخطي عالمِ الوحشة والمرض إلى عالمِ الألفة، وهو العالم المنشود الذي يجد فيه ذاته"(١٦). وطبعاً هذا لا ينفي شغفه بها وهيامه هياماً شديداً سيطر على ذاته مما جعله يتعلق بها تعلقاً لا مثيل له، حتّى تحولت عنصراً ملأ حياته ودنياه بالسّعادة والهناء، " فهي تبعد عن شاربيها الهمَّ والسَّقم، وتريح النفس وتهب الروح والطمأنينة، إنّها عنده موطن السر، ومبعث البوح، إنّها وسيلة الكشف ورمز الانطلاق، إنّها الداء والدّواء معاً"(١٧).

وأياً كانت مفرداتُ العبث والسّرور المرتبطة باللّيل، فإنّها لا تقف عند فترةٍ محددة المسار والمفصل، وإنّما يفصح الشّاعر عن امتداد رقعة البعد الزّمني الخصيب لأثلاثه الثلاث بحثاً عن جريانِ الحياة ووصولاً إلى الارتواء الرّوحي، فليله لم يعد سوى مسرحاً للكأس، ومستودعاً للتوهج الإنفعالي، كما يبدو ظاهراً في قوله:(١٨)

أَخي قد مضى من ليلنا الثُّلثان،
ونحنُ لنجمِ الصُّبحِ منتظران
فَصوب من الإبريقِ في الكأسِ شربة،
يعلُّ بها قلبان مختلفان

يفتح أبو نواس الأفق الزّمني في حجرات حانته على مصراعيه تلبيةً لرغباته الذّاتية، ويتّخذُ

(١٥) ديوان أبي نواس،٣٢٣/٢. أخلفت: أمحلت فلم يكن فيها مطر. مصارعنا: المواضع التي صرعتهم الخمر فيها. جثوم: واقعون على الصدور، ملازمون للأرض لا يبرحونها. الكلوم: الجروح. الكليم: الجريح. الصافية: خمر صافية نقية غير ممزوجة بماء. قرعت: مزجت.

(١٦) الرَّبابعة، موسى، بنية التّوتر: مقاربة سيميائية لنّص جاهلي، بحث ضمن مؤتمر النّقد الدولي الرابع عشر، بعنوان واقع الدراسات النقدية العربية الحديثة، ٢-٤/٧/ ٢٠١٣ م، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، ص٧٥٧.

(١٧) الزّعيم، أحلام، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد، ط١، دار العودة، بيروت،١٩٨١م، ص١٦٧.

(١٨) ديوان أبي نواس، ٤١٣/٢. صوَّب: صب. يعل: يسقى مرة بعد مرة. العلل: الشرب بعد الشرب.

من موتيفة اللّيل وسيلةً يحرّكُ في أعماقه وجداً يتّسع لكلّ المداعبات واللّعب مع السقاة والقيان والغلمان، وتبعاً لذلك وجد في الخمرة غايته التي ينشدها في تحقيق الفكاهة والائتناس، وهكذا يتحدُّ الفضاء الزّمني المتمثل في دلالات الهدوء والاستقراء مع اللّحظة الخمرية التي تعطي إحساساً مفعماً بالإثارة ونشوة المتعة.

والحق، أنَّ هناك ارتباطاً متيناً بين اللّيل والهزل والدُّعابة عند أبي نواس، حيث ينفذُ من خلاله إلى رائحة قهوته، ولكنّه قلّما يُشبع ذاته إشباعاً تاماً، حيثُ يقول:(١٩)

نشرب اللّيل إلى الصُّبـ
ـح صغاراً وكبارا
ونُغنّي ما اشتهينا
ه من الشّعر جهارا
اسقني حتّى تراني
أحسب الدّيك حمارا

يريد أبو نواس أن يطوي مراحل القهر والكبت، وأن يمحو ملامح الكدر والألم، فهو يبغي خلاصاً كاملاً من مرحلة تؤرقه، وتستفز مخيلته، وكأنّها ورم خبيثٌ يعبثُ في الذّاكرة النّواسية، تحاصره وتسبب له الأرق والتّأزم، فلا بدَّ من البحث عن وسيلة لتفريغ القلق من خلال ليل يلهو به، ويتناول فيه مشعشعة يجتمع عليها الصغار والكبار بمجلس غناء وطرب، يستمر زمنه حتّى الصّباح(٢٠). لذا كان يرى في اللّيل انفتاحاً رحيباً على عالمه الجميل، "ومجالاً لاقتناص اللّذة بعيداً عن أعين الرقباء"(٢١)، في اللّيل يسمح له فعل ما يهوى وما يطيب.

ويؤدي اللّيل عند أبي نواس دوراً مزاجياً مريحاً، فهو بمثابة مادة باعثة على انتهاب الطاقات المضيئة كي يتمتع الشّارب وينهمك بالإصغاء إلى الموسيقى وإيقاعاتها ونبضها، بل إنّه قادر على تحفيز حواسنا ومداركنا للتعامل مع معطيات الخمارة: أصواتاً، وروائح، ومشاهد صاخبة، وتنغيمات منبعثة من تنقلات وتحركات النّشاوى والسُّقاة(٢٢)، وذلك كما في قوله:(٢٣)

يا ليلةً بتُّها أُسقّاها
أُلهجني طيبها بذكْراها
نأخذُها تارة، وتأخذُنا
موتورة تقتضي، ونبداها

إنَّ فضاء السّكينة واللهو تحققان بفضل تلك اللّيلة طيبة النّشر، والممتلئة بالإشعاعات السحريّة، وأمام هذه اللّيلة نلحظُ الشّاعر يتواجه مع الزّمن بجرعة خمرية ملتهبة لتحقيق أكبر قدر من الصّفاء والبهاء الروحي.

ويلح أبو نواس كثيراً على لياليه العامرة بكلّ ما فيها من أبعاد الاشتعال الوجداني المفضي

---

(١٩) ديوان أبي نواس،٤٣٦/١.

(٢٠) الشّعار، سلطان، الزّمن في شعر محمود درويش، ط١ ، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠١٨م، ص١٤٣.

(٢١) إبراهيم، نوال، اللّيل في الشّعر الجاهلي، دار اليازوري، عمان، الأردن، ٢٠٠٩م، ص١٠٧.

(٢٢) حداد، نبيل، بهجة السرد الروائي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٠م، ص٦٧.

(٢٣) ديوان أبي نواس،٥٠٩/٢.أسقاها: أسقى فيها. ألهجني: جعلني ألهج، أغراني. الموتورة: المصابة بظلم أو مكروه. نقتضي: نطلب. نبداها: نبدأها.

إلى الإخصاب والنمو، التي من شأنها أن تشير إلى قداسة ولطافة خمرته، ويتضح ذلك حينما يذكرها بقوله:(٢٤)

يا لَيلَةً بِتُّ في دياجيها،
أُسقى من الرَّاحِ صفْو صافيها
تَدور بالسَّعد كأسنا عجلاً،
قد فُتّت المسْك في نواحيها

وإذا عُدنا إلى ربط اللّيل بالخمرة، وصلنا إلى أنَّ أبا نواس يختزل في ترسيمة شبقية متحركة مشهد السَّعادة، "فقصديته قصديةٌ مباشرة غير مبطنة عن عذوبة هذه اللّيلة، فهي ليلةٌ هانئةٌ سعيدة تمتع فيها بشرب راحٍ صافية ذات صفات مميزة، فهو لا يستطيع أن يهجرها مهما فعل، فهو صريح مع نفسه ومع غيره، ومع التّوبة الزّائفة أنّه لم يتب عنها ولم يستطع التوبة"(٢٥)، فالمَتعة واللّذة منحتاه إحساساً بجمال مساحة الزّمان وصفائه. وهذا ما يؤكد "أنَّ الصَّفاء في اللّيل ارتبط عند شعراء العصر العباسي بليالي الحب من جهة، وليالي الخمر من جهة ثانية"(٢٦).

وفي وسط مدارات اللّيلة الكرخية تنبعث اللّذة والنُّور من أقبية حاناتها، وحتّى يستكمل البعد الزّمني مراسيم التّحليق والاشتعال يتّجه الشّاعر نحو صهبائه الشقراء الضّاربة إلى الحمرة وعليها ختم. ومن الملحوظ "أنّه اتخذها مدخلاً إلى عالمِ السياسة، والسعادة، والجمال، والمعرفة، ومخرجاً وحيداً من سجنِ المجتمعِ وسجنِ أعرافه، وتقاليده، ومأزق الوجود"(٢٧)، امتداداً لمشروعه الذاتي، فيقول:(٢٨)

يا لَيلَةً بالكرخِ كم لَذّة
سيقَت إلينا لَيلَةَ الكرخِ
سقيتها صهباء، مشمولَةً،
كريمة الجدَّين والسّنخِ
سلافَةً، تضحك في كأسها،
عذراء صانوها عن الطّبخِ

إنَّ التّعامل المباشر مع النّص السّابق يظهر أنَّ أبا نواس ربطَ بين اللّيل والخمرة، وهذا ما نؤيده، فعندما كان اللّيل رمزاً للأمن والهدوء والسّكينة النّفسية، صار لزاماً عليه أن يقربه للمربع الخمري في إنتاج معنى الاستنارة والمجون، وتوليد دلالات السُّطوع والتّطهير في مزيجٍ من المشاعر الفيّاضة لدرجة تصل إلى الاندماج التّام.

ولما كانت الخمرة مصدراً من مصادر الإشراق والارتياح عندَ أبي نواس، فإنَّ شاربها في اللّيل يتخذها وسيلة إنارة وهداية إلى الرؤية الواضحة، كما نلحظ في قوله:(٢٩)

وكأنَّ شاربها لفرط شعاعها
بالليل، يكرع في سنا مقباسِ

---

(٢٤) ديوان أبي نواس،٥١٣/٢. دياجيها: ظلماتها.

(٢٥) حسين، طه، حديث الأربعاء، ط١٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ٨٩/٢.

(٢٦) العمر، فاطمة، اللّيل في الشّعر العباسي، مرجع سابق، ص٣٩.

(٢٧) نهزمي، يوسف، دراسة نقدية في مبنى خمريات أبي نواس، إضاءات نقدية، مجلة فصلية محكمة، السنة الأولى، جامعة آزاد الإسلامية،ع٢، ٢٠١١م، ص١٢٧.

(٢٨) ديوان أبي نواس،٢٨٩/١. الكرخ: من ضواحي بغداد. مشمولة: باردة. السنخ: الأصل والنسب. السُّلافة: الخمرة. صانوها: حفظوها.

(٢٩) ديوان أبي نواس،٣٠/٢. مقباس: شعلة النار.

يجدُ المتأمّلُ لهذا النَّصِ الشّعري، أنَّ الخمرَ عند أبي نواس ليست شيئاً عادياً وطبيعياً، وإنما هي خمر مفعمةٌ بالنُّورِ والإشعاعِ، مليئةٌ بالحبِ والحياة، والليل هو الذي يبرز تلك الدّلالات بشكل جلي، فلولا اللّيل لما ظهر إشراق الخمرة وسطوعها بهذه القوة، فظلمةُ اللّيل لا يمحوها إلا شعاع الخمرِ ونورها، واقتران شعاع الخمرِ باللّيلِ أضفى قوة على ذلك الشّعاع، فلا شيء يبرز جمال الخمرة وفعلها في النّفوس مثل اللّيل، فخمرته شعلةُ نارٍ أينما وجدت، حتّى أنَّ الليل لا يحجبها، بل على النّقيضِ من ذلك هو أفضل الأوقات التي تعكس جمال الخمر وبريقها.

ولعلَّ فتنةَ أبي نواس بالعقارِ تزيده إلحاحاً على شربها، لذا ظلَّ ليلُه أمثولةً للتفتح والارتقاء، وسبيلاً لخلاص روحه المقيدة بأمراس الخيبة والقنوط، يقول:(٣٠)

أَعطتك ريحانها العقار،

وكانَ من لَيلِكَ انسفَار

فانْعم بها قبل رائعات

لا خمر فيها، ولا خمار

في استدعاء الشّاعرِ لعنصرِ الزّمن(اللّيل)، فإنَّه يؤكد على إجلال الخمرة، واستغلال شربها، فعن طريقها يلغى أو ينتشي الجانب الأرضي؛ ليستفيق الجانب الرَّوحي، في غزارةٍ، وانفتاحٍ وارتقاء(٣١). فالشّاعر أراد أنْ يغتنم ليله بالشّرب؛ لأنَّه يدرك أنَّ هذا اللّيل آيل إلى الزَّوال وفي زواله تصبح الحياة أكثر شقاوة ومعاناة، فتنطفئ عندئذ جذوة البسمة والأمل.

ويبقى القول: إنَّ شاعريةَ أبي نواس نجحت في الإمساكِ بلذة اللّيل وإيقاعاته النّدية، كمساحة زمنية مارس فيها غليانه الرَّوحي، وثورانه العاطفي، فإذا كان اللّيل لديه انسفاراً لزفرات الحب والعشق للخمرة، وحلوله موئلاً يحقق فيه ما يصبو إليه من افتضاء ومتعة ولذة، فإن غيابه يترك نكوصاً وبكاء مريرين.

ومما يسترعي الانتباه أنَّ أبا نواس في نصوصه الشّعريّة سعى جاهداً إلى الحديث عن ندمائه وإقامة علاقة محكمة شديدة الالتحام معهم، كونهم يشاركونه حياته وأفعاله التي يعشقها، خاصة جلسات اللّهو التي كانت تجمعهم في اللّيل، ولا ريب أنَّ استدعاءه للندماء حينئذ أليق بالسّياق اللّيلي، نظراً لفرط هناءة لحظات اللّقاء مع الأخلاء، واستدراجه لهم نحو امتلاك الرّاح، فيقول:(٣٢)

وفِتْيةٍ نازَعوا، واللّيل معتكرٌ،

برقاً تَلُوحُ به أَيْد وأَقداح

إنَّ رغبةَ أبي نواس في تناول الخمرة مع ندمائه قادته إلى إطلالة متجددة على عالمِ اللّيل

---

(٣٠) ديوان أبي نواس،٣٩٨/١. الانسفار: الانكشاف. الرائعات: واحدتها الرائعة: المنية. الخمار: صداع الخمر.

(٣١) ستار ، ناهضة، بنية السرد في القصص الصوفي؛ المكونات والوظائف والتقنيات، ط١، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، ٢٠٠٣م، ص٤٠.

(٣٢) ديوان أبي نواس، ٢٤٨/١. نازَعوا: تبادلوا شرب الخمرة، وتناولها فيما بينهم.

الحالك، ليل ينيره بريق الخمرة وتلألؤ أقداحها، وتبدد وحشته وتزيل عتمته مرافقة النُّدماء، وهذا يمنحُ اللّيل بعداً سرمدياً في السّعادة والرّاحة، مما يؤكد أنَّ اللّيل في شعرِ أبي نواس يخرج في مواضع كثيرةٍ من سياقه الزّمني المفعم بحالة السَّوادِ ليصنع منه فضاء رحباً خاصاً يحمل روحاً شفافةً، وعالماً يعزز الرَّغبة الوجدانية الجامحة لديه، "فهو يرى أنَّ اللّيل لم يكن مصدراً للقلق والتّوتر، بل كان ملاذاً أو مساحةً للتستر لممارسة اهتماماته وحياته التي تقوم على ترصد نشوة الروح وتألق الحَلم مع النُّدماء الفحول"(٣٣).

واستدعاء أبي نواس لليل ليس عبثاً، وإنَّما يراه ثواباً ملتهباً في وجه النَّشوة الثائرة، فاللّيلُ بأبعاده الدَّاخلية صورةٌ نابضةٌ بمشاعر الحب والذّكريات الكريمة، فها هو يصور ممارساته السَّعيدة بعد أنَّ حلَّ عليه اللّيل، مدفوعاً إليه بالحاجة إلى التّنفيس، حتّى لكأنَّ اللّذائذ تنشأ عنه، إذْ يقول:(٣٤)

يا ربَّ مجلسِ فتيانٍ سموتُ له،
واللّيل محتبسٌ في ثوبِ ظَلْماء
لشُربِ صافيةٍ من صدرِ خابيةٍ
تغشى عيون نَداماها بلألاء

وإذا استعان أبو نواس باللّيل لزيادة التّأثير بالنُّفوس، فإنَّه سرعان ما يحشد في عمارة نصه أركاناً ذات أفق دلالي مكثّف، لإظهارِ مقطعٍ من حياته اليومية في حانة من أجل شرب خمرٍ صافية والغرق بعوالمها، لذلك يأتي باللّيل كدثرٍ يدلُّ على الاحتواء، وحين نقف مع الشّاعر على صورة اللّيل نجده" قد ربط وصف اللّيل بذكر مجالس الشّرب، وذهب في وصفه مذاهب القدماء في بعض صوره القديمة مازجاً إياها بنفس الشّاعر المجدد والمتنعم بحياة حضارية تتوافر على منابع عديدة للترف المادي"(٣٥).

وتظلُّ صفات الإنبات والانبلاج والتّفاؤل للندماء تلحُّ على الشّاعر في وصفه اللّيل، وهو كما قال: النُّور والصفاء والإلهام والنّعيم:(٣٦)

كأنَّ كاساتنا، واللّيل معتكرٌ،
سرجٌ توقد في محرابِ شمّاسِ
هذا وذاك، وفتيان لهم أدب،
شُمُّ الأُنوف، سراة غير أنكاسِ
نازعتهم قهوة صفراء، صافية،
بشادن خنث، كالغصنِ ميّاسِ

ويكثر أبو نواس من الإلحاح على تلوين ليله بالمعاني القويّة الجميلة، على الرغمِ من ظلامه وعتمته فهو وسيلته للتّعبير عن صبواته وأشواقه مع صحبه، وهو بهذا أشبه بمظلة يلتقي تحتها الأصحاب، ينفثون فيه ما يودون قوله وممارسته، مما يضفي عليه أنساً وجمالاً ساحرين، فاللّيل عنده مصدر سعادة ونعيم للندماء الذين

---

(٣٣) علي، كوثر، اللّيل في الشّعر العربي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، أم درمان، ٢٠١٤م، السودان، ص٣٢.

(٣٤) ديوان أبي نواس، ٣٤/١. خابية: إناء كبير للخمر. تغشى: تغطي. اللألاء: البريق.

(٣٥) صدّام، وجدان صادق، جمال الطبيعة في شعر أبي نواس، مجلّة دراسات، جامعة البصرة، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، مج٢٠، ٢٠١٥م، ص١٨٠.

(٣٦) ديوان أبي نواس، ١٩/٢. شم الأنوف: أي أعزاء. سراة: سادة. أنكاس: ضعفاء جبناء.

اتّصفوا بالشّممِ والأنفة وعدمِ الجبن أو التّطفل، وهنا تستوقفنا انتقائية أبي نواس للرفقاء إذْ "كان يختار رفاق شرابه من علية القوم، أو ممن ينسجم معهم أدبياً ونفسياً، وطريقة حياته ليسمو بهذا كلّه عن الابتذال، ويرتفع بالخمرة إلى المستوى اللائق بها وبه بعيداً عن الأعراب أو السُّوقة"(٣٧)، فالسَّمر مع هؤلاء النُّدماء، والتّلذذ بكؤوس الخمرِ من أسباب النَّزعة التّفاؤلية عنده في نظرته إلى اللّيل، فلا ريب بعد ذلك أن يزيد من أُنسه ويبعد وحشته.

ومعلوم أنَّ أبا نواس مقيم في بغداد، متنقل بين حاناتها، يعبُّ من أخمارها، ولعلَّ خير ما يمثل صدق تلك المظاهر حينما يتحدث عن اللّيل في بابِ اللّهو والعبث والتّعلق به، لإحداث الاستقرارِ النفسي، وروعة المشاعر على المستوى الدّلالي الكلي، فليس غريباً أنَّ يرى اللّيل يمثّل سكوناً وأمناً وراحة(٣٨)، خاصة عندما يتعاطى كؤوس الخمرِ مع ندمائه، فقال:(٣٩)

حتّى تَخيَّرت بِنْت دسكرةٍ،
قد عجمتها السّنون والحقب
هتكت عنها، والليل معتكرٌ،
مهلْهل النَّسجِ، ما له هدب
من نسجِ خرقاء، لا تشدُّ لها
آخيَّةٌ في الثرى، ولا طُنب
ثُمَّ توجَّأت خصرها بشبا الـ
ـإشفى فجاءت كأنَّها لَهب
فاستوسق الشّرب للندامى، وأجـ
ـــراها علينا اللُجَّين والغرب

ويبقى اللّيل عند أبي نواس إحساساً وجودياً، ومعادلاً موضوعياً للأمنِ والسُّكونِ، بوصفه مسرحاً للأملِ الجميل، وحقيقةً كونيّة تمتلئ بمظاهرِ السَّهرِ والأُنسِ، وهذا ما سوغ له أن يلجأ إليه لقطف لذة الخمر ومغرياتها الرَّقيقة مع ندمائه، فهي خمرة غلب عليها الجودة والقيمة العالية، لا يقوى على تحملها، فكان اللّيل آنذاك فَكاكاً لتناولها مع خلاّنه، لأنَّهم يشاطرونه عالمه الصَّاخب بكلِ أحوالِ الانطلاقِ والخصب، وهذا ما جعل الشّاعر يعيش حالةً من الفرحِ والسُّرورِ، إذْ ينعم بالتّحليقِ والانفلات الذي يؤمنه له ستار اللّيل، وما دام الأمر كذلك، فلا بأس على أبي نواس أن يختار هذه الفئة من الأصدقاء التي لا تلومه، ولا تعاتبه، ولا تذكره بحرامٍ أو حلال، إنَّه يعيش بينها بشفافيته ونضجه الروحي، بعيداً عن اللّومِ والتّقريعِ والعتابِ وأسر العادات، بعيداً عن

---

(٣٧) شرف الدين، خليل، أبو نواس، ط٢، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٤٣.

(٣٨) الجريبة، ليلى، عصافير بابل المحترقة؛ قراءة نقدية، بحث ضمن مؤتمر النّقد الدولي الرابع عشر، بعنوان واقع الدراسات النقدية العربية الحديثة، ٢-٤/٧/ ٢٠١٣م، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، ص٥١٠.

(٣٩) ديوان أبي نواس،١/٦٧+٦٨. الدسكرة: بناء ضخم حوله بيوت يكون فيها الشّراب والملاهي. الحقب: جمع حقبة: مدة من الدهر لا وقت لها.معتكر: مكدر. مهلهل: رقيق. الخرقاء: الحمقاء. الآخية: حبل الخباء. توجات: ضربت. الشبا: الحد من كل شيء. الإشفى: المخرز. استوسق: تم واجتمع. اللّجين: الفضة. الغرب: الذّهب.

القوالبِ الاجتماعية والأعراف، إنَّه باختصارٍ يحقق بينها ومن خلالها كامل حريته"(٤٠).

وبعد، فقد اتّضح لنا من النَّماذجِ الشّعريّة آنفة الذّكرِ أنَّ أبا نواس كان ينظر إلى اللّيلَ على أنَّه ستار لتحقيقِ اجتماعاته مع أترابه وأصدقائه في حانات الخمرِ، كما نلحظُ أنَّه اتّخذَ منه مرفأً لوسائل الرَّفاهية واقتراف المحرمات من التَّغني بشربِ الخمرةِ والدَّعوةِ إليها. والأمثلةُ على كثرتها تكشف عن العلاقة المتينة والقوية بالزَّمانِ من جهة، وتفضح ما يعانيه أبو نواس من تباريحِ الهمِ والغمِ من جهة ثانية.

يضفي استدعاء الشّاعرِ لليلِ الحانات في نصوصه ظلالاً جماليّةً ما يبعثُ على الشّعورِ بالامتلاءِ والنَّشوة، فإذا ما علمنا كثرة زيارته لها خاصة في اللّيلِ، الذي يمثل الظرف المناسب للقيامِ بتلك المغامرات، فانطلاق أبي نواس إلى هذه الحانات لا يكون في معظمه إلا تحت جنحِ اللّيلِ وستاره، فرأى فيه معاني الاستمتاعِ والسُّرورِ، في مثل قوله:(٤١)

يا ربَّ منزلِ خمارٍ أَطَفْتُ بِهِ،
واللّيل حُلْتُهُ كالقارِ سوداء
فَقَام ذو وفْرةٍ من بطْنِ مضْجعه
يميل من سكرهِ والعين وسناء

استأثر الفضاء الزّمني في الحانات والأديرة بفتنة الحضورِ عند أبي نواس، وقد جاء هذا الحضور لافتاً للنظرِ في البنية النَّصيّة التي تتمركزُ حول الطربِ والأمانِ والحنينِ إلى الصفاء، حيث يوضح الحوار الذي دار بينه وبين الخمارِ سبب قدومه إلى هذه الحانة في هذا اللّيل الحالك، فأبو نواس" لا يسعى إلى الخمرِ إلا في لجة اللّيل عندما يكون مثل الطيلسان... وقد كثر إسراؤه إلى بيوت الخمارين"(٤٢)، وكأنّي به يؤكد أنَّ اللّيل ستار يحميه من سطوة السلطة الدينية والاجتماعية التي تأنف وتعاقب على مثل هذا الفعل، وتراه خروجاً على تعاليمِ الدينِ الإسلامي والعرف والعادات.

ونستطيع أن نلمس أثر الزَّمانِ كقوةٍ باعثة على الاسترخاء النَّفسي وإحقاق الحرية الروحيةً من خلال الحوارِ الذي دار بين أبي نواس والخمارِ في خمارته التي يديرها ليلاً، فقد قال:(٤٣)

وخمارٍ أَنخت إليه رحلي،
إناخةَ قاطنٍ، واللّيل داجِ
فقلت له: اسقني صهباء صرفاً
إذا مزجت توقد كالسّراجِ
فقال: فإنَّ عندي بنت عشرٍ،
فقلت له مقالة من يناجي:

والنَّاظر المتبصر في استثمارِ الشّاعرِ لليل يدرك ما ينطوي عليه المشهد من دلالات

(٤٠) الزعيم، أحلام، أبو نواس بين الصبا والاغتراب والتمرد، مرجع سابق، ص١٣٤.

(٤١) الديوان، ٣٢/١. القار: الزفت. الوفرة: غزارة الشعر وما استرسل منه على الإذنين. الوسناء النَّاعسة.

(٤٢) غريب، جورج، أبو نواس زعيم شعراء الخمرة، ط١، دار الأندلس، بيروت، لبنان،١٩٦١، ص٣٩.

(٤٣) الديوان،٢٢٥/٢. أناخ الجمل: أبركه. القاطن: السَّاكن. داج: من الدُّجى وهو الظلمة لليل. الصرف: غير ممزوج بالماء.

التّدفق ونزعات التّفاؤل، وهو في الوقت ذاته يعمق علامة مهمة يختزنها عقل الشاعر تتجلّى في ممارسة الحوار مع الخمار وما يكتنفه من لحظات الإدهاش والتّناغم، حوار يشفّ عن نوع الخمر وجودتها، ويتّخذ مظهراً قوياً قوامه النّفس القصصي اللّطيف(٤٤).

إنَّ أبا نواس يرفع من مكانة اللّيل بحثاً عن الحانات ليرتشف فيها الخمر، سلوة لذاته المكلومة، فطالما رأى أنّها تحيل اللّيل نهاراً من قوة ضيائها ولمعانها،" مما يحول الخمرة من مجرد موصوف مدرك له خصائص لونية معينة إلى جوهر قائم بذاته، ومصدر للنور، له القدرة على تحويل الزّمن، وجعل اللّيل إما أكثر إشراقاً، وإما قلبه نهاراً"(٤٥). وهذا الإجلال لخمرته جعل منها مركز عالمه، وزمانه الخصيب، وعندما يتعلق الأمر باللّيل نجد له حضوراً كبيراً في وجدان الشّاعر، لهذا استعذب زيارة الحانات ليلاً؛ لأنّه وجد فيه بحراً زخّاراً بالحياة والدّفء، فقال:(٤٦)

وفتيةٍ كنجومِ اللّيلِ أوجههم،
من كلّ أغيد للغمّاء فرّاجِ
أنضاء كأسٍ، إذا ما اللّيل جنّهم
ساقتهم نحوها سوقاً بإزعاجِ
طرقت صاحب حانوت بهم سحراً،
واللّيل منسدل الظّلماء كالساجِ

اتّخذ الشّاعر من اللّيل ستاراً تحوط مغامراته، وصديقاً يبثّ له شكواه، فبات الهمُّ مبتعداً، والحزن غائباً، فلا غرو أن يحدد أبو نواس وقت توجهه وصحبه إلى الحانة في السّحر، بعده وقت لهو وسمر لا وقت راحة وسبات، على هذا نعتقد بأنَّ اختيار أبي نواس وأصحابه لهذا الوقت من اللّيل في ظلمته المنسدلة جاء مقصدياً، وربما أصبح مهرباً عن أعين النّاس، والنّجاة من لؤم السّلطة الدّينية القائظة وعقابها اللافح فضلاً عن الحياة الاجتماعية الملوثة، " فهو يتحين فراغ الأديرة والحانات من روادها، وارتيادها في أواخر اللّيل مع الرفاق جميعاً حيث تحلو الحرية، ويخلو لهم الجو فلا يعبق إلا بأنفاسهم، وأنفاس الخمرة والقيان والغلمان"(٤٧).

وتبدو الحانات جزءاً مهماً في كثير من مغامراته اللّيلية، الذي يصور فيها صاحبها غاطاً في سباته، مما يضطره إلى إيقاضه بعد حالة من القلق والهول، حتّى ينتهي بدوره إلى مشوار حياته اللاهي، مثلما حدث مع مالك الحانة في قوله:(٤٨)

---

(٤٤) غريب، جورج، أبو نواس زعيم شعراء الخمرة، مرجع سابق، ص٣٦.

(٤٥) النخلي، آمال، بناء الفضاء في خمريات أبي نواس، مجلّة موارد، جامعة سوسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ع١٤، ٢٠٠٩م، ص١٧٨+١٧٩.

(٤٦) ديوان أبي نواس،١/٢٢٣+٢٢٤. الأغيد: لين الأعطاف النّاعم. الغماء: الغم والهم. أنضاء: واحدها نضو وهو المهزول. منسدل: مرخى ومرسل. السّاج: شجر عظيم، وله رائحة طيبة مع رقة ونعومة.

(٤٧) شرف الدين، خليل، أبو نواس، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٤٨) ديوان أبي نواس،٢/٢٢٨+٢٢٩. المتزمل: المدثر بثيابه. الطارقين: الزائرين باللّيل. بمعزل: بمنأى. المشعي:المهتم.

يا ربَّ صاحبِ حانةٍ قد رعتُه،
فبعثْتُه من نومِه المتزملِّج
فعرفتُه، والليلُ ملتبسٌ بنا،
برفيفِ صِلْعتِه وشيبِ المسحلِ
يا صاحبَ الحانوتِ لا تكُ مشعَياً،
إنَّ الشّرابَ محرَّمٌ كمحلّلِ

وإذا كان الحانوت الذي استظلَّ تحته أبو نواس، يأكل ويشرب ويقرُّ عيناً فيه، يجسد مكاناً للحبّ والحرية، فإنَّ لليل وظلامه شأناً عظيماً في نفسه، فهو الانهمار أو الانصباب في الجري وراء رغبةٍ كامنة متوهجة في هتك حجب قضبانٍ وأصفاد المجتمع وتجاوزه إلى عالمٍ أكثر دفئاً وفيقةً. وعلى هذا الأساس فاجأ الشّاعر صاحب الحانة بموعد قدومه، وهذا يدلُّ على أنّه مقبلٍ على الخمرةِ،" يتخطّى بها الأوامر، ويهدم الحواجز التي تعيق الحرية، بوصفها قادرة على التّحول والخلق، وشعاعاً ينير طريق المدلجين"(٤٩).

ولعلَّ زيارة أبي نواس إلى تلك الحانات مستنجداً بليله، أثناء نوم الخمارين دليل على حاجته في التّخفي عن أعينِ الرقباء، والفرار من كلّ شيء يمكن أن يقف في طريقه، أو يعكّر صفوه أو يحول بينه وبين أشواقه المتوهجة إلى الخمرة؛ لذلك" كان أبو نواس وإخوانه يجتمعون في منازلِ الخمرِ ودساكرها المبثوثة في سواد المدينة، بعيداً عن رقابة الشّرطة حيث يقوم دهاقين الخمارين، وجلهم من اليهود والمجوس الروم"(٥٠).

وصفوة القول: إنَّ نفور الشّاعر ورفضه لما كان سائداً في عصره من القيم الأخلاقيّة والأعراف الاجتماعية الصّارمة التي تنبذُ الفجور والتهتك جعله يهربَ ليلاً إلى دساكر وحانات النّصارى؛ ليمارس حياته الخمرية بقلبٍ ظامئ، ونفسٍ تنضح خفّةً ورعونة. وبما تتوافر في مشهد اللّيل من أجواء المنادمة الفاتنة، ومجالس أنسٍ تدور فيها الكؤوس بين النّشاوى كان لزاماً عليه أن ينفخ فيه صوراً نابضةً بالحياة والحركة، ويبرز ما اشتمل عليه من حسنٍ وبهاء، ويخلع عليه رداء الزّينة والطيب، كاشفاً في ذلك عن مشاعره الدّفينة وإسقاطاته الشّعورية المتمثلة بالأفراح والمسرات.

ولمَّا كان الحبُّ والمؤانسة والاجتماع سبيلاً للتحرر والانطلاق في أحضانِ الطبيعة، ومجالس الخمرة الهادئة، كانَ اللّيل مسرح هذه الأحلام، وحين تبدو الظّلمات محفوفةً بأغصانِ الأشجار المثمرة بأضواء خافتة في طريقها إلى الإشراق الفني والرُّوحي معاً(٥١)، تنمو ساعتئذ النّزعة التّفاؤلية في خاطرة الشّاعر؛ لأنَّ ذلك يمنحه شعوراً بالسّعادة والأمل حتّى الفلق، على نحو قوله:(٥٢)

---

(٤٩) خريباني، جعفر، أبو نواس الحسن بن هانئ، سلسلة أعلام الأدباء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ص٩٣.

(٥٠) رضوان، محمد، ليالي أبي نواس؛ شاعر العشق والمجون، مرجع سابق، ص٣٢.

(٥١) العنابي، زهر، الإنسان والطبيعةُ في شعرِ ابن خفاجة والرومانسيين الفرنسيين؛ دراسة مقارنة، ط١، دار الكتاب الثّقافي، إربد، ٢٠٠٨م، ص١٠١.

(٥٢) ديوان أبي نواس، ٢٦٥/١.

يا حبَّذا لَيلَةٌ نعمتُ بها
أشرب فضل الحبيب في القدحِ
سألْته قُبلَةً فجاد بها،
فلَم أُصدَّق بها من الفرحِ

لم تخب آمال أبي نواس بلقائه مع الحبيب في ليل أسرف في شربه وزادت شهيته لأفعال العشّاق وأحوالهم في اللّيل دون النّهار. فلو رجعنا إلى هذا الغرام الشّديد بمشهد اللّيل نلحظُ أنَّ أبا نواس يقحمه على سهراته وتحركاته إمعاناً منه في توليد وابتكار مدلولات الإقامة والوصل والإشباع في سبيل قهر العجز والانفصال. ومن هنا جاء لقاؤه براقاً جميلاً، ناطقاً بمسرح أنسه ومجال مسراته، كما يكاد أن يبوح بما في نفسه من سعادة غامرة؛ لأنَّه حقّق فيه مبتغاه، لاسيما الحبيب الذي استجاب بدوره لما أراد، فهذه اللّيلة عامرةٌ بالحركة مفعمةٌ بالمشاعر،" فاللّيل هو الذي يسعده ويجمعه بالمحبوب؛ لذا هو يعشق هذا النّوع من اللّيل، فاللّيل دائماً واحة لقاء المحبين وخلوتهم وسترهم"(٥٣).

وإذا مضينا إلى لقاء آخر عند أبي نواس، ألفينا ليلاً يفيض منه الشّوق والشّفافية والوضوح، ويمتزج فيه الحبُّ وملاعبة حبيبه في سكرٍ يذهب العقل، والشّاعر لا يتحدث في هذا النّص عن اللّيل حديثاً فيه الذّعر والانزعاج من الزّمن المالح، وإنّما استخدمه جسراً عبر عليه إلى الصّفاء والهدوء، واقتطاف اللّذاذات، وكأنَّ ثمة تحالفاً متقناً يبرمه مع اللّيل؛ ليترجم أحاسيسه واختلاجاته النّفسية، لكما قال:(٥٤)

ما زِلْت أَسقي حبيبي، ثُمَّ أَلثُمه
واللّيل ملْتحف في ثوب أَمساحِ
حتّى تغنّى، وقد مالت سوالفه:
يا دير حنَّة من ذات الأُكيراحِ

إنَّ قراءة متأنية في النّص السّابق تكشف أنَّ مفتاح أجوائه الشّعورية والنّفسية البهيجة، فضلاً عن لوحته المفعمة بالإمتاع والمؤانسة مصدرها اللّيل، وليس من التّعسف عندئذ أن يراه الشّاعر غطاء لتحقيق المتعة الحميمية مع الحبيب، " فهو يأنس بمن يحبُّ في بحارٍ من الخمر، ويكتفي من الحبيب باللّثم والضم، وهو بين هذا وذاك يتناول الكؤوس المترعة فيعبُّ منها، ويسقي من معه"(٥٥).فاللّيل يستره ويغوص في عوالمه، بل يسعى إلى أن يدرعه رغبة في الاحتماء والانتصار.

ويظلُّ ليل اللّقاء والخلوة قصيراً، وعلامة فارقة ليس في حياة أبي نواس فحسب، بل المشهد يتكرر في عقول المحبين العابثين، "فلا يتبقى لهم فيه سوى الزّفرات الحارقة، والذّكريات التي لا

(٥٣) الزارع، عائشة بنت عودة بن رشيد، صورة اللّيل في شعر غازي القصيبي، مجلّة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مج ٩٠، ابريل ، رجب ، ٢٠١٦م، ص٤٠٠.

(٥٤) ديوان أبي نواس،٣٥٦/١. الأمساح: الواحد المسح وهو الثّوب الأسود الذي يلبسه الراهب. دير حنة: موضع في العراق. ذات الأكيراح: موضع في العراق فيه بيوت الرهبان.

(٥٥) العمر، فاطمة، اللّيل في الشّعر العباسي، مرجع سابق، ص٤٣.

يمتلك الإنسان إزاءها شيئاً كثيراً"(٥٦)، وهذا ما أبانَ عنه الخطابُ الشّعري في قوله:(٥٧)

ولَيلَةٍ قَصَّرَ في طُولِها
بالكرخِ، أن مُتّعتُ من رُؤيته

ومهما يكونُ الباعثُ الحقيقي لهذا القصرِ فإنَّ أهمَّ ما يميز اللّيل لحظة الغواية والانغماس في مجالسِ الشّرابِ المحفوفة بأنواعِ الرَّياحينِ وأكاليلِ الأزهارِ، من هنا ندرك نظرته لليلِ" وكأنَّه لحظات قصيرة تجري مسرعة لشدة حرصه عليه"(٥٨)، وهذا دليل دامغ على مدى القربِ النّفسي لليل، فما حظي به الشّاعر من زورةِ حبيبه والخلوةِ به، كانت مدعاة للرّاحة والمسالمة والوداعة وإذكاء للافتنانِ وعمارةِ الموضعِ، فبات زمَنه حينئذٍ زمناً سريعاً لم يدم، بل رحل على عجلٍ؛ حيثُ انطبع في ذهنه" أنَّ السَّهر مع الحبيبِ فيه لذّة ومتعة أحلى منَ النَّومِ في اللّيل، وهذا ما يجعله يحسُّ بقصرِ ليله وسرعة مروره"(٥٩).

ويستمرُّ أبو نواس في استحضارِ صورة اللّيل استحضاراً ايجابياً، ويخرجها إخراجاً مزهراً يانعاً؛ بعدّها مصدراً جالباً لليسرِ والخيرِ، فكلُّ شيءٍ فيه أصبح رطباً نضراً يغري بالمتابعة والتأمّل، كإيراده القول الآتي:(٦٠)

أَيا لَيلُ لا انقضيت
ويا صبح لا أَتيت
ويا لَيل، إن أَردت
طَريقاً، فَلا اهتَديت

لقد باتَ واضحاً أنَّ أبا نواس يتمنى ألا ينتهي اللّيل، ويقبل الصَّباح حتى إنه لجأ إلى أسلوبِ التّشخيصِ بالدعاء على اللّيل أن يضلَّ طريقه كي يبقى غارقاً في رحمِ الامتزاجِ الثّلاثي: نشوة الخمرة والحب والطبيعة(٦١)، فإشراق الصباحِ يعلن نأي الحبيب، وينذر بالهلاك والدَّمارِ، وبذلك يلحُّ على أن يطول اللّيل ولا يبرحَ مكانه، وأن يختفي الصبح، كي يصبح اللّيل ليلاً سرمدياً ممتداً في بساتينِ القصف والمجونِ، وفي الوقتِ نفسه" حقق مبتغاه، فكم تمنى أن تقف عجلةُ الزمن عند هذه اللّيلة، التي طالما انتظرها ليلتئم شمله مع من أحب"(٦٢)، كما أنَّ الشّاعر" يريد لهذا اللّيل أن يمتدَّ طوله حتى لا يأتيه الإصباح ما دام قد أمضاه في لقاء أحبته"(٦٣).

---

(٥٦) الوجود، ثناء، تجليات الطبيعة والحيوان في الشّعرِ الأموي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٤.

(٥٧) ديوان أبي نواس،٢٠٣/٣.

(٥٨) إبراهيم، نوال، اللّيل في الشّعرِ الجاهلي، مرجع سابق، ص١١٥.

(٥٩) الشّريف، سري، تصوير اللّيل في شعرِ البهاء زهير، مرجع سابق، ص٥٣.

(٦٠) ديوان أبي نواس،٢٠٨/٢.

(٦١) أبو سويلم، أنور، الطبيعةُ في شعرِ العصرِ العبَّاسي الأول، ط١، دار العلوم للطباعة والنَّشرِ، الرّياض، ١٩٨٣م، ص٣٣٠.

(٦٢) الزارع، عائشة بنت عودة بن رشيد، صورة اللّيل في شعر غازي القصيبي، مرجع سابق، ص٤٠٦.

(٦٣) الشتوي ، صالح، اللّيل في شعر عبد الله بن المعتز، مرجع سابق، ص٤٨.

والمتتبع لشعرِ أبي نواس لا يجدَ افتتانه باللّيلِ فحسب، بل إنّه كان ولعاً به، متعلقاً بخيوطه، يستخدمه سبيلاً إلى الحياة المترعة بالحبِ والأملِ، ويتّخذه ثوباً ساتراً في حالاته معَ صويحباته، التي امتزجت بكلِ ما هو فرحٍ ماتع حماسي(٦٤)، فهو يرى فيه مخبئاً يلوذ به من عالمه الذي يؤلمه، مخبئاً يهنأ به بالدّعة والسّكينة وخفضِ العيشِ والسعة، حيثُ يقول:(٦٥)

بِنفسي من إذا ما النأ
ي عن عينيَّ واراه
كفاني أنَّ جنح اللي
ـل يغشاني ويغشاه

يستلهم الشّاعر أفكار الرُّومانسيين، وطرائقهم في بلوغِ عالمه النّابضِ بتوهّجِ العواطف، وصراعِ ثنائية الهجرِ والوصالِ والظمأ والارتواء، وهذا ما جعل الشّاعر يستدعي صورة اللّيلِ ومرموزاته الفائضة بالروحانيات. واللّيل يشكلُ لديه مجالاً خصباً للأمانِ والامتلاء ومعيناً ناصراً بالالتقاء مع الآخرِ: (الحبيبة). فكلا المحبينِ في حضرةِ اللّيلِ نبضٌ جامحٌ وإشعاعٌ وجداني وتمازجٌ آسر. فهو يحمل معه في البعد النّفسي بنيةَ الراحة، وإنَّ استحضار هذه البنيةَ يعضد هاجس التّواصل مع الحبيب حتّى لو كان هذا التّواصل ذا دلالة معنوية، لذا "فإنَّ لليل أثراً نفسياً عميقاً ووقعاً ايجابياً، فهو عامل من العوامل التي توجد حالة من الألفة التي تواسي الشّاعر وتهدئ من روعه وشدة شوقه للحبيب، فالأنا الفنية لا تملك أن ترى الأشياء إلا وفقاً للونِ الانفعالات النّفسية"(٦٦).

ب- الأمان والاطمئنان والصفاء:

ولا شك في أنَّ المحمولات الرامزة لليل أبي نواس تقوم على الأمانِ والاطمئنانِ والإشراقِ بالإضافة إلى فاعليّة المراوغة بعيداً عن السلطة السياسية، ففيه تتكاثفَ دلالة المشهد ومغزاه، وفيه ينشأ الهزل العابث والفعل الفاحش، الذي لا يتم إلا إذا توافرت فرصةٌ سانحةٌ ذات امتياز في الأمنِ والسَّلامِ، أي أنَّ اللّيل غدا أداة لتمريرِ نزواته وانزوآته، وهو ما دعاه إلى قول:(٦٧)

فأبصر في أنامله احمرارا،
وليس له لظى حرّ الشّهاب
فقلت له: رويدك إنَّ هذا
سنا الصَّهباء من تحت النّقاب
فسلسلها، فسوف ترى سروراً،
فإنَّ الليل مستور الجناب

ارتبطَ أبو نواس بليله ارتباطاً حميماً، ورآه مخرجاً وحيداً من سجنِ المجتمعِ وسلاسلِ أعرافه، وتقاليده، ومأزقِ الوجود(٦٨)، وقد يكون إحساسه

---

(٦٤) الثّقفي، سعد، مدارات النّص؛ مقاربات نقدية في المنجزِ الإبداعي، ط١، نادي الجوف الأدبي الثّقافي، السعودية، مؤسسة الانتشار، بيروت، ٢٠١٣م، ص٨٢.

(٦٥) ديوان أبي نواس، ٥٢٨/٢. النأي: البعد. واراه: أخفاه وستره. جنح اللّيل: سواده والطائفة منه. يغشى: يغطي.

(٦٦) اليوسف، يوسف، مقالات في الشّعرِ الجاهلي، دار الحقائق، بيروت،١٩٨٥، ص٢٤٢.

(٦٧) ديوان أبي نواس،٨٧/١+٨٨. سنا: نور وضياء. النّقاب: الخمار والبرقع. السَّلسل: سكب. الجناب: الناحية.

(٦٨) نهزمي، يوسف، دراسة نقدية في مبنى خمريات أبي نواس، إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، السنة الأولى، ع٢، صيف ١٣٩٠هـ / حزيران ٢٠١١ م، ص١٢٧.

هذا بقيودِ مجتمعه دفعه إلى أنْ يصنع منه مجالاً رحباً للحرية وأفقاً فسيحاً لممارسة ما يهوى من الملذات والرغبات، وشوقاً إلى الخلاصِ من الخداعِ والزّيف، حتّى أصبح يتطلع فيه إلى التّحررِ من المؤسسة الأخلاقية والاندفاعِ إلى أرجاءِ الحانات الزّاهية، ومشاعل الخمرة الملتهبة.

ويبقى اللّيلَ عند أبي نواس معادلاً موضوعياً للنعومة والرقة والإغراء، وشفاء للغليل في معرضِ حديثه عن الصّهباء، ومغرياتها، وهو غير عابئ بما يتركه الصباح من تكبيلٍ وضوابطَ تحدُّ من انطلاقاته، وهو يخاطب ساقيه قائلاً:(٦٩)

أَدِرْها علينا قبل أن نتفرَّقا،
وهاتِ اسقني منْها سلافاً مروَّقا
فقد همَّ وجه الصُّبحِ أنْ يضحك الدُّ
جى وهمَّ قميص الليل أن يتمزَّق

لا يكتفي أبو نواس بالحديث عن أبعادِ نشوةِ اللّقاء في الحانة ليلاً، وإنّما يشكّل صورة بيانية محورها الزّمان بمفرداته الآتية: (الصبح، الدُّجى، اللّيل) ويبدو أنّه وجد فيها بؤرة النّص؛ ليكرر نسق الإحساسِ بالزّمن، في الوقت الذي يشخّص به الصبح، بدليل أنّه جعل له وجهاً يضحك، وهي النّظرة صنوها التي أسقطها مرة ثانية على اللّيل حينما شبهه بإنسانٍ يلبس ثوباً طفق يتمزق نتيجة حلول الإصباح. وكأنّه من خلال هذا النّمط يعزّز حبَّ الإقبال على الملذات والاستخفاف بالقيمِ والغواية والطغيان في ممارسة السوء، والإحساس أنّه الوقت المخصص لذلك، كما يكسو الصورة مدلولاً حسياً يسري دبيبه إلى المتلقي بشكلٍ يحاكي الواقع(٧٠).

ويقوده تفكيره إلى توظيفه ضدية الصُّبح واللّيل؛" لأنّها ذات علاقة بواقعه النّفسي، فظلام اللّيل يرمز إلى السرية إذْ كان الشّاعر يجد ضالته المنشودة المتمثلة في شرب الخمرة في اللّيل، في حين أنَّ النّهار من يفضح رذائله وفسوقه"(٧١).

يفصح أبو نواس عن زمنِ اللّيل السَّار كثيراً، ويعبر عنه فنياً؛ لأنّه مصدر الخيرِ والحياة، ومن دلائل تعلقه به، وتحننه إليه، أنّه لعب دوراً رئيساً بأجواء اللّهو والمجون، حيث الشّراب والغناء والموسيقى والنّعيم المادي والمعنوي معاً، فكان هذا دافعاً له بأنْ يقترن ليلُه بالعذوبة والهناء، يرجو فيه اللّذة الممزوجة بالنّغمِ، ويتطلع من خلاله إلى الوصلِ واللّقاء، وقد بدا واضحاً في قوله:(٧٢)

---

(٦٩) ديوان أبي نواس، ٣٧٦/٢ . المروق: الصافي. الدُّجى: واحدها الدُّجية: الظُلمة.

(٧٠) أسد، علي كاظم، أثر السياق الزمني والمكاني في تكوين الصورة البيانية: شعر خالد الكاتب أنموذجاً، مجلّة اللّغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ع١٩، ٢٠١٤م، ص٧٧.

(٧١) الشتيوي، صالح علي سليم، ثنائية النّار والنور في شعرِ أبي نواس، مجلّة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت، عمادة البحث العلمي، ع١ ، ٢٠٠٣م، ص١٠٨ .

(٧٢) ديوان أبي نواس،٢٤٦/١. الطلق: الحر. الجموح: المتعصي. العارية: الشيء الذي يعار. قران: زواج وتداخل ومرافقة.

جريتُ مع الصبا طلق الجموح،
وهان عليَّ مأثور القبيح
وجدتُ ألذَّ عارية الليالي
قران النَّغم بالوتر الفصيح

يستعين الشّاعر بالزّمن اللّيلي؛ ليرسخ فكرة اللّذة، بعيداً عن الأعين، ورغبة في حالة الأمان السَّائدة فيه، فغياب الخوف والرَّيبة أوجد عنده شعوراً بمتعة النَّغم واللّذة التي منحها اللّيل له، فقد" نحى بالليل منحى إيجابياً في سياق الدّلالة النّفسية الايجابية عندما وظّفه للتّعبير عن الجوانب المشرقة، واللّحظات السَّعيدة في حياته"(٧٣).

والليل زمنٌ اتّكأ عليه الشّاعر في كثيرٍ من شؤون حياته النّفسيّة، وخاصة ما يسوده الخفاء، والهدوء والسَّكينة، والأمان، بسبب ما اتسم به اللّيل من سترٍ وغطاءٍ دون غيره من الأزمنة، فهو زمن السَّمر والأنس مع الأخلاّء، والذّكريات الجميلة التي تقبع في ذهن الشّاعر، فسرعان ما تحركت خواطره ومشاعره(٧٤)، ولا أدلَّ على ذلك من قوله:(٧٥)

دارت الكأس عليكم،
في غناء وسماع
فاقتسمتم في الدُّجى إذْ
كنتم شاء السّباع
ليلةً سرَّ بها إبـ
ـليس منكم باجتماع
إبل تركب، حتّى
قام للإصباح داع

راوغ أبو نواس كثيراً في أشعاره بحثاً عن زمنٍ يواري فيه سواءاته، وذكرياته الدنيوية السَّافرة، فلم يجد أكثر آماناً وفألاً من الزّمن اللّيلي، فوجهه الوجه النّفسيّة المثلى باعتباره منبعاً للسَّعد والبشارة، فبات مؤئل اللاهين الفاسقين الذين يجمعون في ليلهم بين متعة الكأس والطرب، لإدراكه "أنَّ متعة مجلس الشّراب لا تكتمل لذتها إلا إذا انبعثت منه الألحان"(٧٦). لكنَّ الأمر لم يتوقف مع أبي نواس عند هذا الحدّ، بل يأتينا بنظرةٍ مغايرةٍ للصباح عما هو سائدٌ عند الشّعراء من مدلولات الضّياء والنّور، بحيث تجاوز به المألوف، إذْ رأى فيه رمزاً للقلق والخوف والتّشاؤم. وما كان منه إلا أن أوصانا بالحذر الشّديد منه، وهذا يشفُّ عن الحالة النّفسيّة التي وصل إليها بسبب الضيق والشّكوى من أعراف المجتمع.

ولا ينفك أبو نواس يجمع مكونات صورة الأمان القوية، يرصد عناصرها، ويبث فيها نزعات النّفس الإنسانيّة ودخائلها، ويطمح إلى شيوعها في المكان، لعلها تخفف من وطأة الأحمال عليه، وتبدّد كدر رجال الحسبة وخبثهم. من هنا شكلت المحاور الثلاثة: الفتى البسام، والسَّاقي الحسن،

(٧٣) شنوان، يونس، اللّيل في شعر ابن زيدون، أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللّغويات، جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي، مج ٢٠، ع١، ٢٠٠٢، ص ٢٠.

(٧٤) السبت، عبدالرحمن بن أحمد، الزّمن في شعر طاهر زمخشري، مجلّة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع ٤٦، ٢٠١٧ م، شوال، ص٣٠٧.

(٧٥) ديوان أبي نواس،٢/١١٠.

(٧٦) غريب، جورج، أبو نواس زعيم شعراء الخمرة، مرجع سابق، ص٤٥+٤٦.

والدّرياقة السَّائلة، معالم بارزة على مساحة الزَّمن اللّيلي الآمن، فيقول:(٧٧)

يا ربَّ لَيلٍ بتُّ في نعمة،
عند فتى أبيض، بسَّامِ
بِجنْبِ ساقٍ حسنٍ وجهه،
في السَّمْعِ، عدلٍ، غيرِ ظَلاَمِ
قد بات يسقيني درياقه،
سالَت من الإبريق في الجَّامِ

وبإلقاء نظرة فاحصة على النَّص السَّابق يسترعينا أمر الإقبال الشّديد والإلحاح العجيب لدن أبي نواس على متاع الدُّنيا في ليلٍ يشعر فيه بالفرح والسُّرور، الذي من مظاهره: الجماعة والفتوة والتّبسم والحسن والغبطة، فليس عجيباً آنذاك أن نلحظه أكثر لصوقاً باللّيل، وأكثر حديثاً عن تحركاته فيه؛ ليعبّر عن روعة مشاعره ورغبته في الانعتاق من الأوجاع والآلام.

ويزداد اللّيل شططاً في الصَّفو والابتسامة، حينما يحدثنا فيه أبو نواس عن الجماعة والكأس والسَّاقية، فيأتي اللّيل رمزاً للفرح والمرح، من خلال ما عاشه مع أصدقائه من لقاءات ومناسبات وأمسيات سعيدة تخللتها خمرة أضاءت دياجي اللّيالي وأرجاء المراتع والدّيارات، كما في قوله:(٧٨)

ساعٍ بكأسٍ إلى ناشٍ على طَرَبٍ،
كلاهما عجبٌ في منظرٍ عجبِ
قامت تريني وأمر اللّيل مجتمعٌ
صبحاً تولّد بين الماء والعنبِ

يهتبل الشّاعر زمنه اللّيلي البهيج ليحقق رغباته الدَّفينة، وهي رغبات ماديةٌ تظهر في مجالس الأُنس والطرب مع القيان والغلمان وشرب الخمر. وإذا أمعنا النَّظر في قوله:(قامت تريني وأمر اللّيل مجتمعٌ صبحاً...) نرى إلى أي حدّ بلغ تعلّقه بالخمرة، والتي يأمل من خلالها ليلاً سعيداً تحفه المسرات والإشراقات الكثيرة، فهو يحرص على الرَّبط بين اللّيل والخمرة، التي تعكس النُّور الفتان، وتبدد ظلمة اللّيل، وتحيلها إشراقاً وضياء وتزيدها جمالاً. من هنا كان" وصف الخمرة من أعم أوصاف النواسي، فقد لا تخلو خمريةٌ من تشبيه بالكواكب، أو المشرق، أو النّهار، أو الصَّباح، أو الفجر، أو الشّمس، أو المصباح، أو الشّعاع، أو الشّهاب، أو الضياء، أو الشّعل، وأبياته في هذا المجال تفوق الحصر"(٧٩).

هكذا، رسم أبو نواس لليل طريقاً مضيئة، توخّى فيه معاني الفرح وتسلية الروح، فجاءت النزعة التّفاؤلية جلية في مواضع اللّهو والسَّمر والفسوق، والألفة واللّقاء، والأمان والاطمئنان والصَّفاء، ثم لم يلبث إلا أن يجد فيه مهرباً من الهموم، وشكلاً جديداً للتّحرر من الارتباطات وألوان القيود، وفرصة سانحة للاختلاء بالذات. وغالباً ما كان لحظة جمالية لكل ما عند الشّاعر، بوصفه منفساً عميقاً، ومطهراً نفسياً، أفرز صيحات مأزومٍ، وزفرات مكلومٍ، وأنّات مشحونٍ، وصرخات ثائرٍ، انتشرت في أطواء نصوصه الشّعرية.

(٧٧)ديوان أبي نواس، ٣٠٦/٢. الدرياقة: الخمرة.

(٧٨) ديوان أبي نواس،٧٧/١. ناش: ثمل.

(٧٩)غريب، جورج، أبو نواس زعيم شعراء الخمرة، مرجع سابق، ص ٤٩.

ثانياً: النَّزعةُ التَّشاؤمية:

أطال الشعراء الوقوف عند اللّيل في إطاره السّلبي، وأدخلوه في دوائرهم الخاصة، فوجدوا فيه مادة غزيرة قادرة على جلاء تجاربهم الشّخصية، ورؤاهم النّفسية ونزعاتهم الشّعورية التي تعتريها علامات الهول والجزع والنّصب والألم. "كما شكوا من طوله وانسداله في مجال حديثهم عن آلامهم وتباريح حبهم، حيث نسمع صرخاتهم المدوية في اللّيل الطويل المهول يطلبون انكشافه، ونشعر باستغاثتهم الحارة بإخوتهم لإنقاذهم من أوجاعهم التي لا تبرحهم"(٨٠). وهذا أبو نواس يصرُّ على تحديد إحساسه باللّيل بمسحة تشاؤمية تحمل بعدين اثنين، هما:

أ- السَّوداوية القاتمة.

وعلى الرغم من أنَّ النزعة التّفاؤلية لليل احتلت مكانة بالغة الأهمية في أشعار أبي نواس، إلا أنَّ ذلك لا يمنع خلو تلك الرؤية من النَّظر إليه نظرة ذات انطباع تشاؤمي سوداوي قاتم، ومرد ذلك عائد إلى نفسيته المتقلبة، ويمكن أن نضيف سبباً آخر، وهو الظروف المحيطة التي أتاحت لإحساسه سمتي التّغيير والتّحويل، "الأمر الذي يجعل اللّيل تتنوع ملامحه وتتباين صوره، وتختلف دلالاته، تبعاً لمشاعر ومواقف الشّاعر نفسه، حتّى إنَّ خلجاته الداخلية وما ينتابه من أحاسيس إنما تضفي على اللّيل السّمة المتساوقة مع تلك الخلجات والأحاسيس"(٨١).

ويشعر أبو نواس بالعجز والحسرة أمام ليله الطويل حين ظعن عن دياره، ونأى عن أليفه الملازم، وهذا الامتداد الزمني جعل أبا نواس يشكو عدم انجلائه، ويعلن إحساسه بالضياع والخواء الروحي، انظر قوله معبراً عن معاناته وحزنه:(٨٢)

أَلا هل على اللّيل الطَويلِ معينِ،
إذا بعدتْ دار، وشطَّ قرينِ
تطاول هذا اللّيل، حتّى كأنما
على نجمه، ألاّ يعود، يمينِ

لقد كانت رؤية أبي نواس لليل منبعاً للشّقاء والهم والإنقطاع، وما انفك يعبر عن هذا: انزعاجاً واستغاثة واستصراخاً، وأكثر من ذلك يقف مشخصاً لوطأة اللّيل وقسوته وثقله، حتّى كأن اللّيل ليل ثابت غير قابل للانزياح والأفول، "فيصبح اقتران ليل العاشق المؤرق بمراقبة النَّجم يوحي بإحساسه بثقل الزّمن وحركته البطيئة، التي تجسد معاناته"(٨٣)، وتعكس في الوقت ذاته صورة التّفكك النّفسي الدّاخلي للشّاعر، وهذا دليل عما في نفسه من لوعة، وعجز عن مواجهة الواقع المأزوم.

---

(٨٠) أبو سويلم، أنور، الطبيعة في شعر العصر العبّاسي الأول، مرجع سابق، ص٦٧-٦٩.

(٨١) فالح، جليل رشيد، اللّيل في الشّعر الجاهلي، آداب الرافدين، جامعة الموصل، كلية الآداب، أيلول،١٩٧٨م، ص٥٣٤.

(٨٢) الديوان، ٤٥١/٢.

(٨٣) إبراهيم، نوال، اللّيل في الشّعر الجاهلي، مرجع سابق، ص١١٦ .

ولو أردنا استقصاء تقاطعات معنى اللّيل في النّص الشّعري السّابق وجدناها تتزاحم في مدلولات القلق والاضطراب والوحشة،" وكأنَّ المحبَّ منذور لليل، فهو دائم الأرق والسَّهر، يكابد فيه لنيل الوصال، ويحترق بنار الأشواق، ويعاني ألم الحرمان وأنين الذّكريات، إذْ غالباً ما يقترن ليل العاشق بالأرق والسَّهر، فهذه الحياة غير المستقرة، وهذا الارتحال الدّائم يكاد يكون السبب الرئيس في ضياع الحب عند العرب بالنأي والهجران، فتنساب الذّكريات في هدأة اللّيل وسكونه هادئة حزينة؛ فإذا بليل الأمس السَّعيد، ليل المتعة والسرور، ينقلب حزيناً باكياً، يفتق جروح الشّاعر، و يردُّ إلى صدره الهموم، ويضاعف بلاءه"(٨٤).

ويصرُّ الشّاعر على تعميق الإحساس بالإحباط والتّقهقر والانتشاح بالسَّواد عندما يتوجه إلى صورة ليل البعاد، وقد بثَّ فيه معاني السَّرمدية النّافية لدلالات النّور أو النَّهار، " فالليل بوصفه زمناً أضحى عنده معادلاً لوضعه النّفسي، إذْ لم يعد زمناً عادياً بل أصبح زمناً انفعالياً بسبب قسوة الحياة والزّمن معاً"(٨٥)، ويعزّز الشّاعر إحساسه النّفسي المعادل لحال اللّيل ما أورده يصف ليلة رحيل أحبته، قائلاً:(٨٦)

قد قُلْتُ، لَيلَةَ ساروا،
وما ارْتَبان النَّهار
وقد خلين الدّيار
منهم فلا آثار
لصاحب يستشار
أأنجدوا أم أغاروا

يعكس المقطع الشّعري أعلاه عالم الشّاعر النّفسي المتشظي، وهذه الحالة لا تعدو ألا أن تكون استجابة واقعية لموقفه من اللّيلة التي ابتعد فيها الأحبة وتفرق شملهم، وبانوا عن ديارهم، ومن أجل ذلك طفق يشعر بامتداد اللّيل وثقله، وأنَّ النَّهار مدبر غير مقبل، بأسلوب لا يخلو من استفهام استنكاري يجسد وقعاً سلبيًّا على ذاته التي تعاني من القطيعة على المستويين: الإنساني والزماني معاً(٨٧).

لم يستطع الشّاعر أن يجد منقذاً له بعد رحيل من أحب،" لذلك فإنَّ ظلمة نفسه هي من جعلت ليله يبدو طويلاً لا يكاد ينتهي، وليس فيه بصيص من نور، فقد آلمه الفراق، فضاق به صدره، ونفد صبره حتّى بات متشككاً في طلوع

(٨٤) المصدر السَّابق نفسه، ص١١٤+١١٥.

(٨٥) الزبيدي، شيماء، إشكالية المعنى في شعر امرئ القيس والنَّابغة الذّبياني؛ الدلالة الرمزية لليل أنموذجاً، مجلّة العلوم الإنسانية، جامعة بابل، مج٢٢، ع١، آذار، ٢٠١٥م، ص٦.

(٨٦) الديوان، ٤٨٥/٢. أنجدوا: ساروا في النَّجد، وهو ما أشرف من الأرض وارتفع، والهضاب والمرتفعات. أغاروا: ساروا في الغور، وهو المطمئن من الأرض.

(٨٧) الربابعة، موسى، قراءة النّص الشّعري الجاهلي؛ مقاربات نصية، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، ٢٠٠٢م، ص٣٠.

الفجر. لعلَّ هذا الإحساس بطول اللّيل يجسد موقفاً شعورياً حزيناً لدى الشّاعر بعد الفراق"(٨٨).

ب- الشّكوى والأنين.

إنَّ استيعاب الشّاعر لصورة الزّمن السَّعيد، واطلاعه على مظاهره الزاهرة، يعزز رمزيته الداكنة حينما يجعله معادلاً لأنينه وشكايته باعتباره أزمة مثقلة بالخيبات والهزائم.

وإمعاناً من أبي نواس في اليباس والعطش الوجداني، فإنَّه يلبس ليلة فراق الأحبة وهجرهم الدّيار عقماً واقفراراً قاهرين للذّات الإنسانيّة، ويتجاوب هذا اللّباس بشكل سافر، عندما شبهها بليلة قارة غير مدبرة ولا يتضح لها جلا أو إشراق، على هذا النّحو راح الشّاعر يتابع ما يحمله اللّيل من جفاف وقسوة، وممارسات تشي بالتّفتت والتّناثر، فالشّاعر يريد أن يسقط ما في نفسه على لوحة اللّيل، ويؤكد أنَّ القطيعة قد تمت فيه، حيث لعب دوراً أساسياً في خيباته وانكساراته الروحيّة.

ولم يتوقف إحساس أبي نواس بالفزع إزاء اللّيل نتيجة مغادرة وهجر الأحبة فحسب، إنما يرى في اللّيل ثقلاً عظيماً يتمثل في مروره بشكل بطيء، كأنَّه لا مجال لظهور النّهار بعده حتى يقشع ظلمته، ويزيل همه.

يضيق أبو نواس ذرعاً من اللّيل، ويتّخذه مصدراً للبلاء والمحنة، فكلّما أمتدّ مساره الزّمني، استمرت معاناته ومقاساته للأحزان والآلام،" وهو عنده دلالةٌ رمزيّةٌ للوحشة والرّهبة والخوف والموت عند إقباله، وهو الحياة والأمل والسَّعادة عند إدباره وانبلاج فجره"(٨٩)، يقول محترقاً بمداه:(٩٠)

أَطال قصير اللّيل، يا رحم، عندكم،
فإنَّ قصير اللّيل قد طال عندنا
وما يعرف اللّيل الطّويل وغمه
من النّاس، إلّا من تنجَّم أو أنا

حمل اللّيل في نص أبي نواس الشّعري رؤية تراجيدية حزينة، تبلورت بالحسرة المريرة، والتّجربة الهلوعة اعتماداً على عالمه الدّاخلي المتسائل عن المختلف بين نظرة المحبوبة إلى اللّيل التي لا تشعر بطوله وقسوته وثقله، وذاته القلقة المشغولة بتيمة الانتظار في ليله الشّديد والضّارب في المدى البعيد، التي شفّت عنه الألفاظ: (طال، غمه، تنجم)، بهذه المقابلة أدرك أنَّه لا يعرف طول اللّيل وشدته إلا من كان يراقب نجوم اللّيل أو يتجرع كؤوس السَّقوط والحرمان وضنى البين.

ولعلّنا، إذا ما عدنا إلى التّرسيمة الفنّية التي يرسمها الشّاعر لذاته، نستطيع أن نلتمس فكرة " أنَّ المرأة والضياء تتكآفان في الفاعليّة من حيث ممارستهما على الذّات الشّاعرة، ويأتي بعد هذا التّشكّل في حركة المعنى دور اللّيل الذي يقوم بالضغط النّفسي على الذّات، وذلك أنَّ انسحاب الضياء وابتعاد المرأة جعل دال اللّيل يمارس

---

(٨٨) إبراهيم، نوال، اللّيل في الشّعر الجاهلي، مرجع سابق، ص١١٣.

(٨٩) طالب، عمر، العزف على وتر النّص الشّعري؛ دراسة في تحليل النّصوص الأدبية الشّعرية، د.ط، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٢٨.

(٩٠) الديوان،٤٨١/٢. رحم: مرخم من رحمة، وهي اسم امرأة. تنجم: رعى نجوم اللّيل.

فاعليته القاسيةَ الضروس من خلال فاعلية الحزنِ الذي أطبقَ على ظلمة اللّيل الفسيح، وتخلّل هذه الذات فلونها بألوانِ الشّظفِ والوحدة والمشاعرِ الحزينة التي يضغطُ بها اللّيل عليها"(٩١).

ويتخذُ الشّاعر من اللّيل وسيلةً تفتح له الطرقات لينفذَ منها إلى حديث الأسى والأرقِ والسّهاد، ويعبّرُ من خلالها عن إحساسه المشوب بالقلقِ الذي كان يملأُ نفسه، ويشغل وعيه. ومن اللافت للنّظرِ في هذا النّصِ أننا نجده هلعاً تتهاداه الخطوب، وتتقاذفه أمواج الفقد والمحن، بعد أن تبرأ منه النُّدماء، وتخلّى عنه الأصدقاء، وهكذا يصبح اللّيل إزاراً سوداوياً قمعياً ملازماً له، إذْ يقول(٩٢):

وقد يضمُّ عليَّ الليل نقبته
ولا مسامر إلاّ السُّوء والباس

واضحٌ هنا أنَّ الوحشة تخترق ليل الشّاعر، وتسيطر على حياته بكاملها، فقد أصبحت المسامر والأنيس الذي يقطع به الليل، ونستشفُ من هذه التّحولات ارتفاع صوت اليَّأس والانكسار، مثلما نصادفه يشكو انقطاع لذة المغامرات والمسامرات فضلاً عن انسلاخ الأصحاب والأحباب لاشتداد الحاجة إليهم في مثل هذه اللّحظة، فلا أحد يشاركه مصابه، أو يواسي جراحه، فهو المتورطُ الوحيد، الذي يواجه الظمأ والاغتراب.

ويمكن اعتبار الظروف التي يمرُّ بها أبو نواس ركيزة أساسية في تلون ليله تبعاً للحالة النّفسية التي يعيشها، فصار انعكاساً لها، ثمَّ غدا موحشاً وباعثاً على انفصام العلاقات، وتبديد الجماعات، وهاجساً مرعباً يؤرق ساكنه. لذلك ليس غريباً أن يعي الشّاعر "أنَّ حياته قسمةٌ بين ماضٍ مضى وحاضرٍ قلق يشفق من انفلاته من يديه، ومستقبلٍ مجهولٍ يستشرفه ويخافه. فهو لا يملكَ إزاءه غير القلقِ والتّهاوي والمصير المجهول"(٩٣).

ويبلغُ أبو نواس حدودَ الصّرخة العليا باللّيل الهائل، يدفع ظلماته دفعاً مستمراً، ويرفع من حدّته وشدّة قسوته المتزاحمة على النّفس البشريّة، ويعرضُ لضرباته الفاتكة، فيقول:(٩٤)

ربَّ ليلٍ قطعته بانتحاب،
ربَّ دمعٍ هرقته في التّرابِ
ربَّ ثوبٍ نزعته بعصيرِ الـ
ـدّمعِ بدّلتُ غيره من ثيابِ
لم يجفَّ المنزوعُ عنّي حتّى
بلّت العين ذا لطول انتحابِ
إنما يعرف الصّبابة من با
ت على فُرقةٍ من الأحبابِ

يختار الشّاعر علامةً وجدانيةً مهمةً لصورة اللّيل حالكة السّواد، تعكس لوعته ودموعه السّواكب حسرة على فراق الأحباب بعيدي الأرجاء، وهذه ما يدعوه إلى أن يبكي ليلاً؛ لأنّه

---

(٩١) القرعان، فايز، الموضوعة الاستعارية في شعر السياب؛ اللّيل أنموذجاً، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٩م، ص١١٤.

(٩٢) الديوان، ٣١/٢. النقبة: ثوب كالإزار.

(٩٣) الخياط، جلال، الشّعر والزّمن، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٥م، ص١٨.

(٩٤) ديوان أبي نواس، ١٠٣/١.

أشد حرارة، وأكثر استغراقاً في النُّواح والأسى، إنَّه زمنٌ للسقوط والأفول، بل إنَّه زمن الهدمِ والخروجِ من إطارِ العنفوانِ إلى أصداء التَّرنيمات الحزينة، وهذا يدلُّ على نفسية أبي نواس المضطربة المهلهلة.

لا جرم – إذن– أنْ يرتبطَ ذكرَ اللّيلِ بآلامِ الشّاعرِ وما أصابه من حرقة ومفاجآت عندما يستحضر أيامه العامرة بالبهجة والجمالِ التي عايشها مع رفاقه، وكأنَّ أبا نواس –هنا– ينتبه إلى فقدانِ الغضارةِ وانهزامِ الرَّجاءِ بواقعه المعيشِ، واقع مأساوي غلبت عليه صورة البطشِ والهلاك المؤكد، وهكذا لا نرى عجباً أنْ يقترن اللّيل الحزين بالسُّهاد، ومجانبة الرُّقاد، فبمقدارِ تلبد الهموم في حنايا النَّفسِ يتجسد اللّيل الذي يزايل فيه النَّوم عين المؤرق المسهد"(٩٥).

ويتوالى المشهد عند أبي نواس في مثال أكثر جلوة، يسبر جوهر معاناته مع الليل في العثورِ على منفذٍ للراحة والاستقرار، ومن ثمَّ فإنَّه كلما تنامى الأرقُ والقلقُ في نفسِ الحزين أصبح اللّيلُ بالنسبة إليه أوسع هماً وانسحاقاً، فكان ذلك سبباً في الاَستسلامِ والخضوعِ له، على نحو ما نرى في قوله:(٩٦)

تَناومتُ جهدي، فلَم أَرقُد،
ونام الخَليُّ ولَم يسهد
أُقَلِّبُ طَرْفاً كَليل اللّحاظ،
وإن قَرَّ عن جسد مُقصد
وأنهضُ في طَربات تهيج،
وأُلزِم طَوراً فُؤادي يَدي

إنَّ قراءة النَّصِ الشّعري السَّابقِ تكشف حالة الانتهاك النَّفسي التي أصابت الشّاعر، ويبدو أنَّ هذا ناتجٌ من محاولة النَّومِ الميؤوس منها، حتى يتركه ويهجره إلى غيره ليلاً، ويأتي نقيضاً للخلي الذي قد نام، بينما هو مسهد سهران يقظان يقلّب طرفه في ظلمات اللّيل، يمسك فؤاده بيده خشية أن يطير"(٩٧)، وما مصدره إلا الشّكوى والتَّظلّم من شدّة إطباقِ الزّمنِ عليه.

ويلتفتُ الشّاعر إلى أعماقِ ذاته، ويدرك مدى الخيبة والهمومِ التي تعتصر نفسه، وتكوي قلبه بنارِ السَّهرِ والسُّهاد، فهو يكابد اللّيل محاولاً التَّغلب عليه من خلال الإذعانِ بالنُّومِ، ولكنَّه لم يفلح في تحقيقِ مراده، فالفزع والمرارة والزّفرات الحرى والأوجاع الروحية حركةٌ دائريةٌ ليليةٌ لا تسمح له بالوصول إليه، وبالتَّالي هذه إشارة إلى كبرِ همه وقلقه؛ لذلك ينقلب الحال إلى النَّقيضِ تماماً إذْ يتحول إلى زمنٍ حزينٍ وثقيل، وبدل من أن يكون زمناً للراحة والهدوء، أو زمناً للسعادة

---

(٩٥) فالح، جليل رشيد، اللّيلُ في الشّعرِ الجاهلي، مرجع سابق، ص٥٤٢.

(٩٦) ديوان أبي نواس، ٣٢٢/١. تناومت: حاولت النوم. أرقد: أنام . الخلي: الخالي من الهموم. يسهد: يسهر . كليل اللّحاظ: فاترها. المقصد: المطعون. الطربات: الذّكريات الحزينة.

(٩٧) شامي، يحيى، أبو نواس الوجه الآخر، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ص٨٩.

بلقاء المحبوبة، يتحول إلى زمنٍ مجلّلٍ بالسَّواد الدَّامسِ ومحفوفٍ بالكره والضراء(٩٨).

وخلاصةُ القولِ هنا: إنَّ اللّيل استغرقَ وجوهاً زمنيةً متعددة في شعرِ أبي نواس، تراوحت في هذه الأمثلة بين الضَّعف والضّياع والعلّة، والانكسارِ وفقاً لحالة الشّاعرِ الرَّاسخة تحت الظَمأ والأنينِ والشّكوى من زمنه اللّيلي، بعد أنْ شكّل وطأة ومصيبة أمطرها علَيه، فلم يجد ما يستنير أو يتأسى به إلا تلك الصَّرخات والافصاحات المتألّمة والاستكانات وسيلةً للتعبيرِ عن خضوعه بسببِ الزّمنِ الموجعِ.

الخاتمة

أدرك الباحثانِ الصلةَ المقصودة بين أبي نواس واللّيل، صلة تشير إلى التفاتات ذكية وصنعة ماهرة منه إلى الزَّمن، فقد جعلَه منبراً يستبشرُ فيه الحرية ويرجو منه الخير، ومكاناً يخرج إليه من حالته الغارقة في المكابدات والأغلال، بعيداً عن السَّاسة والأذلال، والخديعة والرِّياء. ولما كان هذا اللّيل وعاء للفعل وامتداداً للروحِ الثّائرة، فإنَّه يتحول إلى دارةٍ للشراب، وصالة للرقص، وحديقة للعزف والغناء، وفي مثل هذه الأماكنِ يحدثُ التّفكير والأمان والحمايةُ والألفةُ والسُّكون وتوافر عوامل الإيجاب في عالمِ البشرِ.

وإنَّ ما يثيره اللّيل في نفسِ الشّاعرِ لا يقتصر على وقت الرَّخاء المفعمِ بالأوتارِ الشّجية والرنة الموسيقية والظّرف واستحضارِ ليالي الوجد والغرامِ والأيامِ اللّذيذة في مجلسِ الشّراب، وإنّما يصبح الزمن عنصراً باعثاً على الأرقِ والحزنِ والجدبِ والعدمِ، ويجسد ظلاماً داكناً يتساوق مع نفسيةِ الذّات الشّاعرة السوداء. وفي ضوءِ هذه التّصورات توصل الباحثانِ إلى النتائج الآتية:

١- توسل أبو نواس باللّيل في أشعارهِ طلباً لإشباعِ رغباته الجنسية المكبوتة ونشاطاته النفسيّة الدفينة، ولقد استطاعَ بفعل لغته الشّعريّة المخاتلة أنْ يفضح كثيراً من الممارساتِ الاجتماعيّة الزائفة عندِ رجالات وأفراد الدّولة العباسيّة.

٢- ولجَ أبو نواس باللّيل إلى لواعجَ نفسيّة تجنحُ إلى نوعٍ من المثالية ورتبة علويّة سامية فضلاً عن خلقِ عالمٍ جميلٍ يسودهُ المتعةُ والانبهار في عوالمِ الخمرةِ، لذلك رأى فيه كلَّ معاني الصفاءِ والنّقاءِ والاستقرارِ، واللّيل عنده أداةٌ فاعلةٌ لانطلاقِ الفكرِ والمعرفة، وحلم غنيٍ بالخلاصِ، وقوة مؤثرة للإبداعِ، وبوصلةٌ موجهةٌ لضبطِ حركات الشّاعرِ وانفعالاته.

٣- اتّخذ الشّاعر من اللّيل حيلة فاعلة يخفي خلفها تهتكاته وخروقاته على السلطة الأخلاقية والسياسيّة، بإعلانه التّمرد والانفلات الصَّارخين على منظومة القيمِ والأعرافِ الدّينية والتّقاليد الاجتماعيّة. ولعلَّ هذا التّحرر يؤكد ذاتاً ممتلئة، وشاعراً رافضاً لإملاءات

---

(٩٨) نصير، أمل، الزّمن في شعرِ الشعراء العذريين في العصرِ الأموي، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، مج٢٩،ع٢، حزيران،٢٠٠٢م، ص٥٢٨.

السَّلطة، واحتواءاتها للأفرادِ الرَّافضينَ لكلّ أشكالِ العبوديّة.

٤- رأى أبو نواسَ في اللّيلِ الايجابي أماً رؤوماً ممرعةً ومخصبةً ترعى أبناءها وتحميهم من سهامِ الشّرِ ونظرات الكاشحين وتطفلات الرُّقباء. وترصد البنيةّ الشّعريّة في هذا المشهد عنايةً فائقةً بأشكالِ التّواصلِ مع النّدماءَ والأحبة والأصحابِ عند نزوله الحانات، وقد تجلّى هذا الأمر بإصراره على نقلِ مغامراته وعلاقاته الحميمة وزياراته اللّيليّة، وتصويرها تصويراً فنيّاً قائماً على مدلولاتِ النّعيمِ والحياة الدّافقة بالنّشاط.

٥- اصطَبَغ اللّيلَ في أشعارِ أبي نواس بألوانٍ وأشكالٍ كثيرةٍ. ومنٍ الملاحظ هنا أنَّ هذه الألوانِ تشكلت بناء على حالة الشّاعرِ النّفسية. فليلُه العبثيِ ذات صفاتَ ايجابية تفيض طموحاً وحناناً وخصوبةً وسعادة، أما ليل الرحيل والوداع – على سبيل المثال لا على سبيلِ الحصرِ– فيصوره تصويراً بائساً سوداويّاً يعيدُ إلى الأذهانِ لحظات الانشراخِ والانشطارِ والتّهدمِ والتّوحشِ والثّبولِ.

٦- تمركزَ اللّيلِ المهموم في نصوصِ أبي نواس الشّعريّة بموضوعات الرّحيل والفراقِ والعشقِ، ويَستطيَع المتلقي أن يلمَس هنا إحساس الإنسان بالزّمنِ عامةً واللّيلِ خاصةً من حيثُ الطول والقسوة والثقل والمعاناة الحادة إضافةً إلى الظلامِ والغربةِ النّفسيّة؛ لأنّه أضحى قوةً قادرةً على إزاحة كلّ مدلولاتِ التّآلف والتّلاحم، وفعلاً يبعث القهرَ والالتياع والجدب.

٧- شكّل اللّيل عنصراً فاعلاً ومحوراً رئيساً في بنيةِ الصورةِ الفنّيةِ، وتتّضحُ الفاعليةُ وضوحاً جمالياً في صياغة اللّوحة الشّعريّة القائمة على البناء والإيقاع، والتي استطاعت أنْ تحملَ مواقف الشّاعرِ الوجدانية المختلفة وأن تسبر هاجسه الانفعالي الحقيقي عند حديثه عن اللّيل.

٨- رأى الشّاعرِ باللّيلِ حِصاراً منيعاً، وسلطةً رقابيةً باطشةً، تتمرد على الإنسانِ، وقد وصل بها التّمادي إلى المغالاة والغلوِ. ومن ثمَّ يهدد راحةِ الإنسانِ وأنَّ ابتهاجهم واستقرارهم مرهونٌ به، فاللّيل يعوقهم عن الهدوءِ إن أرادوا الاسترخاء، ويمنعهم السُّبات عند الاضطجاعِ.

قائمة المصادر والمراجع

١-إبراهيم، نوال، اللّيل في الشّعرِ الجاهلي، دار اليازوري العلمية للنشرِ والتّوزيع، عمان، ٢٠٠٩م.

٢-أبو نواس، الحسن بن هانئ، الديوان، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، ط١، منشورات دار الكتاب اللّبناني، بيروت،١٩٨٣م.

٣-أبو سويلم، أنور،الطبيعةُ في شعرِ العصرِ العبَّاسي الأول، ط١، دار العلوم للطباعة والنّشرِ، الرياض،١٩٨٣م.

٤-أسد، علي، أثر السياق الزّمني والمكاني في تكوين الصورة البيانية؛ شعر خالد الكاتب أنموذجاً، مجلّة اللّغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة،ع١٩، ٢٠١٤م.

٥-الثّقفي، سعد، مدارات النّص؛ مقاربات نقدية في المنجزِ الإبداعي، ط١، نادي الجوف الأدبي الثّقافي، السعودية، مؤسسة الانتشار، بيروت، ٢٠١٣م.

٦-خريباني، جعفر، أبو نواس الحسن بن هانئ، سلسلة أعلام الأدباء،ط١،دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م.

٧-خليل، أحمد، في النّقد الجمالي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦مَ.

٨-الخياط، جلال، الشّعر والزمن، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٥م.

٩-حداد، نبيل، بهجة السرد الروائي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد،٢٠١٠م.

١٠-حسين، طه، حديث الأربعاء، ط١٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

١١- الرباعي، عبد القادر، جماليات المعنى الشّعري: التّشكيل والتّأويل، ط١، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٨م.

١٢-الرّبابعة، موسى، بنية التّوتر: مقاربة سيميائية لنّص جاهلي، بحث ضمن مؤتمر النّقد الدولي الرابع عشر، بعنوان واقع الدراسات النقدية العربية الحديثة، ٢-٤/٧/٢٠١٣م، جامعة اليرموك، إربد.

١٣-الربابعة، موسى، قراءة النّص الشّعري الجاهلي؛ مقارابات نصية، دار الكندي للنشرِ والتّوزيع، إربد،٢٠٠٢م.

١٤- رضوان، محمد، ليالي أبي نواس شاعر العشق والمجون، ط١، مركز الرّاية للنشرِ والإعلامِ، القاهرة، ١٩٩٩م.

١٥-الزبيدي، شيماء، إشكالية المعنى في شعرِ امرئ القيس والنابغة الذّبياني؛ الدلالة الرمزية لليل أنموذجاً، مجلّة العلوم الإنسانية، جامعة بابل، مج٢٢، ع١ ،٢٠١٥م.

١٦-الزارع، عائشة، صورة اللّيل في شعرِ غازي القصيبي، مجلّة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مج ٩٠ ، ٢٠١٦م.

١٧-الزّعيم، أحلام، أبو نواس بين العبث والاغترابِ والتمرد، ط١، دار العودةَ، بيروت،١٩٨١م.

١٨-السبت، عبدالرحمن، الزّمن في شعرِ طاهر زمخشري، مجلّة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،ع ٤٦ ،٢٠١٧م.

١٩-ستار، ناهضة، بنية السرد في القصصِ الصوفي؛ المكونات والوظائف والتّقنيات، ط١، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب،٢٠٠٣م.

٢٠-شامي، يحيى، أبو نواس الوجه الآخر، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان،٢٠٠٢م.

٢١-الشّريف، سري، تصوير اللّيل في شعرِ البهاء زهير، المجلّة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط كلية الآداب، مج٢١،ع١ ،٢٠٠٦م.

٢٢-الشّتيوي، صالح، اللّيل في شعر عبد الله بن المعتز، المجلّة الأردنية في اللّغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، مج٢،ع٤، ٢٠٠٦م.

٢٣-الشتيوي، صالح، ثنائية النار والنور في شعرِ أبي نواس، مجلّة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت،ع١، ٢٠٠٣م.
٢٤-شرف الدين، خليل، أبو نواس، ط٢، دار مكتبة الهلال، بيروت،١٩٨٢م.
٢٥-الشّعار، سلطان، الزَّمن في شعرِ محمود درويش،ط١، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠١٨م.
٢٦-الشّكعة، مصطفى، الشّعرُ والشعراء في العصرِ العباسي، دارَ العلم، بيروت، ١٩٧٣م.
٢٧-شنوان، يونس، اللّيل في شعر ابن زيدون، أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللّغويات، جامعة اليرموك، مج ٢٠،ع١ ،٢٠٠٢م.
٢٨-صدام، وجدان، جمال الطبيعة في شعرِ أبي نواس، مجلّة دراسات، جامعة البصرة، مركز دراسات البصرة والخليج العربي،مج ٢٠،٢٠١٥م.
٢٩-طالب، عمر، العزف على وترِ النَّصِ الشّعري؛ دراسة في تحليل النُّصوصِ الأدبية الشّعرية، اتّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.
٣٠-علي، كوثر، اللّيلُ في الشّعرِ العربي، أطروحة دكتوراه غير منشورةَ، أم درمان، السودان،٢٠١٤م.
٣١-العمر، فاطمة، اللّيل في الشّعرِ العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلب، سورية،١٩٩٨م.
٣٢-العنابي، زهر، الإنسانَ والطبيعةُ في شعرِ ابن خفاجة والرومانسيينِ الفرنسيينِ؛ دراسة مقارنة، ط١، دار الكتاب الثّقافي، إربد، ٢٠٠٨م.
٣٣-غريب، جورج، أبو نواس زعيم شعراء الخمرة، ط١، دار الأندلس، بيروت، لبنان،١٩٦١م.
٣٤-فالح، جليل، اللّيل في الشّعرِ الجاهلي، آداب الرافدين، جامعة الموصل، كلية الآداب، أيلول، ١٩٧٨م.
٣٥-القرعان، فايز،الموضوعة الاستعارية في شعرِ السياب؛ اللّيل أنموذجاً، عالم الكتب الحديث، إربد،٢٠٠٩م.
٣٦-النخلي، آمال، بناء الفضاء في خمريات أبي نواس، مجلّة موارد، جامعة سوسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ع٢٠٠٩،١٤م.
٣٧-نصير، أمل، الزّمن في شعر الشّعراء العذريين في العصر الأموي، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مج٢٩، ع٢، حزيران،٢٠٠٢م.
٣٨-نهزمي، يوسف، دراسة نقدية في مبنى خمريات أبي نواس،إضاءات نقدية، مجلّة فصلية محكّمة، السنة الأولى، جامعة آزاد الإسلامية، ع٢ ،٢٠١١م.
٣٩-الوجود، ثناء، تجليات الطبيعة والحيوان في الشّعرِ الأموي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،١٩٩٠م.
٤٠- اليوسف، يوسف، مقالات في الشّعرِ الجاهلي، دار الحقائق، بيروت، ١٩٨٥م.